بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنْ الرَّحِيمِ

رَسائلُ الثُّغُور

الرِّسالَةُ السادِسَةُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}.

الحَمْدُ للهِ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّهِ الكريم، أمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ التَّدافُعَ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ سُنَّةٌ ما ضِيَةٌ فِي هَذِهِ الحَياةِ الدُّنْيا؛ حِكْمَةً بالِغَةً مِن اللهِ تَعالَى الذِي جَعَلَ هَذهِ الدارَ للامْتِحانِ والابْتِلاءِ، وتِلكَ سُنَّةٌ لا سَبِيلَ لِتَبْدِيلِها ولا تَحْوِيلِها؛ ولا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ سُبْحانَهُ، وعَلَى أَهْلِ الإسلامِ أَنْ يَأْخُذُوا للأَمْرِ عُدَّتَهُ، وأَنْ يَكُونُوا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ حَيثُ أَمَرَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ، فَإِنَّهُ لا يُغْنِي قَلَمٌ عَن سِنانٍ ولا سِنانٌ عَن قِلَمٍ، ولا هُما يُغْنِيانِ عَن اللسانِ فِي مَوْضِعِ اللسانِ؛ ولا هُو بِمُغْنٍ عَنْهُما فِي مَواطِنِهِما، والقَلْبُ مِن وَراءِ ذلكَ سُلطانٌ وحارِسٌ علَى هَذا كُلِّهِ، وأَكْمَلُ الناسِ جِهاداً مَن جَمَعَ بَينَ هَذهِ الأَرْبَعَةِ.

وقَدْ كَثُرَ فِي زَمانِنا هَذا الكَيْدُ لأَهْلِ الإسْلامِ بالعُدْوانِ علَى اصْطِلاحاتِ الشَّرْعِ التِي جَعَلَها اللهُ تَعالَى دَلِيلاً علَى مُسَمَّياتِها، و مِنْ ذَلكَ ما وَقَعَ السؤالُ عَنْهُ مِن تَسْمِيَةِ فَرِيضَةِ الجِهادِ إرْهاباً؛ ومُجارَاةِ طائِفَةٍ مِن المُسْلِمِينَ لِما يُشاعُ مِن ذلكَ ويُنْشَرُ؛ حَتَّى غَدَونا نَسْمَعُ هَذه العِباراتِ فِي هَذا البابِ وأَمثالِهِ علَى أَلْسِنَةِ بَعْضِ العُلَماءِ والدُّعاة؛ بَلْ إنَّ مِنْهُمْ مَن صَنَّفَ كُتُباً سَمَّاها بِذلكَ!، فَهَلْ تَجُوزُ هَذهِ المُجارَاةُ فِي الشَّرْعِ؛ وكَيْفَ الجَوابُ عَن ذلكَ كُلِّهِ؟.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ كَيْدٍ نَصَبَهُ إِبْلِيسُ لِبَنِي آدَمَ كانَ مِنْ جِهَةِ تَغْيِيرِ الاسْمِ لِيَتَوَسَّلَ بِذلكَ إِلَى صَرْفِ آدَمَ علَيْهِ السلامُ عَن حِقِيقَةِ المُسَمَّى!، وذلكَ بِتَسْمِيَتِهِ الشجَرَةَ التِي نُهِيَ عَن الأَكْلِ مِنْها شَجَرَةَ الخُلْدِ!، فاسْتَدْرَجَ بِهَذِهِ الحِيلَةِ آدَمَ علَيهِ السلامُ إِلَى مُواقَعَةِ ما نُهِيَ عَنْهُ؛ **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** بالأَكْلِ مِن الشجَرَةِ وفِعْلِ ما لَمْ يَكُنْ لَهُ فِعْلُهُ؛ ومَعَ هَذا فَلَمْ يَنَلْ مُرادَهُ، وقَوْلُهُ **{فَغَوَى}:** إما أَنَّهُ أَخْطأَ طَرِيقَ الخُلْدِ؛ فَإِنَّهُ يُطْلَبُ بالطاعَةِ لا المَعْصِيَةِ، وإمّا أَنَّ عَيْشَهُ فَسَدَ عَلَيهِ بِما صَنَع.

وتَمَعَّنْ فِي مَكْرِ عَدُوِّ الله!:

- فَإِنَّهُ نادَاهُ باسْمِهِ أَوَّلاً؛ لِيُشْعِرَهُ بالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِ؛ فَيَكُونَ أَشدَّ إقْبالاً علَيهِ؛ وأَصْغَى لَهُ سَمْعاً.

- ثُمَّ خاطَبَهُ مُسْتَفْهِماً؛ بِقَوْلِهِ: **{هَلْ أَدُلُّكَ ...}؛** فَأَتى بِصِيغَةِ الدَّلالَةِ وهِي: الإرْشادُ إِلَى مَطْلُوبٍ لا يَظْهَرُ لطالِبِه، ولأَنَّ النَّفْسَ شَدِيدَةُ الطَّلَبِ لِعِلْمِ ما تَجْهَل، وأَرادَ بالاسْتِفْهامِ أَنْ يُوهِمَهُ النُّصْحَ؛ وأَنَّهُ لا يَقْصِدُ إِلْزامَهُ بِذلكَ؛ بَلْ كَأَنَّ الخِيارَ مَتْرُوكٌ إِلَيهِ، قالَ البِقاعِي: سَاقَ لَهُ الغُشَّ مَسَاقَ العَرْضِ، إِبْعَاداً لِنَفْسِهِ مِنْ التُّهَمَةِ وَالغَرَضِ.

- ثُمَّ سَمَّى الشَّجَرَةَ شَجَرَةَ الخُلْدِ!، فَأَتاهُ مِن حَيْثُ ما جُبِلَ عَلَيْهِ مِن كَراهَةِ المَوْتِ وحُبِّ البَقاء، قالَ ابنُ عاشُور: وَقَدْ أَفْصَحَ هَذَا عَنْ اسْتِقْرَارِ مَحَبَّةِ الحَيَاةِ فِي جِبِلَّةِ البَشَرِ، قالَ: وَاقْتِصَارُ الشَّيْطَانِ عَلَى التَّسْوِيلِ لآدَمَ وَهُوَ

يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ آدَمُ وَحَوَّاءُ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّ اقْتِدَاءَ المَرْأَةِ بِزَوْجِهَا مَرْكُوزٌ فِي الجِبِلَّةِ!، انتَهى. وَأَرَادَ عَدُوُّ اللهِ بِما قالَ: أَنَّهُ لا يَمُوتُ سَواءٌ كانَ عَلَى حالِهِ أو كانَ مَلَكا؛ كما فِي الآيَةِ الأُخْرى: **{إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}**، وذكَرَ الرازِيُّ فِي هَذا المَوْضِعِ أَنَّ الشَّيْءَ الذِي رَغَّبَ اللهُ آدَمَ فِيهِ هُوَ الذِي رَغَّبَهُ إِبْلِيسُ فِيهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعالَى رَغَّبَهُ فِي دَوَامِ الرَّاحَةِ وَانْتِظَامِ المَعِيشَةِ بِقَوْلِهِ: **{ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تَضْحَى}**، وَرَغَّبَهُ إِبْلِيسُ أَيْضاً فِي دَوَامِ الرَّاحَةِ بِشَجَرَةِ الخُلْدِ؛ وفِي انْتِظامِ المَعِيشَةِ بِمُلْكٍ لا يَبْلَى، إِلاَّ أَنَّ اللهَ وَقَفَ ذَلِكَ عَلَى الاحْتِرَاسِ عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، وَوَقَفَهُ إِبْلِيسُ عَلَى الإِقْدَامِ عَلَيْهَا. ويَتَرَتَّبُ عَلى هَذا جُمْلَةٌ من المَباحِثِ لَيْسَ هَذا مَوْضِعاً لَها.

- ولَمْ يُعَيِّنْ لَهُ الشجَرَةَ أَوَّلاً؛ بَلْ أَجْمَلَ الكَلامَ لَتَشْوِيقِهِ إِلَى طَلَبِ التَّعْيِينِ!؛ ثُمَّ عَيَّنَها لَهُ؛ كما يَدُلُّ علَيْهِ قَوْلُهُ تعالَى: **{فَأَكَلاَ مِنْهَا}.**

- ولَمّا رَأَى مِنْهُ نَوْعَ إِصْغاءٍ؛ انْتَقَلَ مِن الاسْتِفْهامِ إِلَى الإِخْبارِ والحَصْرِ!، حَتَّى كَأَنَّهُ يَجْزِمُ بِما يَقُولُ: **{مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}!.**

- وزادَ الأَمْرَ تَأكِيداً وتَرْغِيباً بِقَوْلِهِ: **{وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى}!**؛ مَعَ أَنَّ ذلكَ مِن لَوازِمِ الخُلُودِ الذِي زَعَمَ.

- ثُمَّ أَتْبَعَ ذلكَ بِالقَسَمِ عَلَى أَنَّهُ ما أَرادَ إِلاَّ النُّصْحَ لَهُما؛ **{ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}**، وقَدْ وَرَدَ أَنَّ آدَمَ عَلَيهِ السلامُ لَمّا سَمِعَهُ يَحْلِفُ باللهِ اعْتَقَدَ مِنْ شِدَّةِ تَعْظِيمِهِ للهِ أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْلِفَ بِهِ أَحَدٌ عَلَى الكَذِبِ، فَأَنْسَاهُ ذلكَ العَهْدَ بالنَّهْيِ عَنِ الشَّجَرَةِ، ولِذا قالَ مَن قالَ مِن العُلَماءِ: مَنْ خَدَعَنا باللهِ خَدَعَنا!.

ثُمَّ تَأَمَّلْ كَيْفَ عَقَّبَ القِصَّةَ بِالتَّحْذِيرِ مِنْهُ؛ ومِن فِتْنَتِهِ التِي كانَتْ مِن جِهَةِ تَبْدِيلِ الأَسْماءِ والتَّلاعُبِ بالأَلْفاظِ كما ذكَرْناهُ؛ وَالتِي كانَتْ سَبَباً لإِخْراجِ آدَمَ عَلَيهِ السلامُ مِن الجَنَّةِ؛ فَقال: **{يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ}**؛ لأَنَّ الشيطانَ إِنْ قَدِرَ علَى إِلْقاءِ آدَمَ عَلَيهِ السلامُ فِي الزَّلَّةِ فَهُوَ أَنْ يَقْدِرَ علَى إِلْحاقِ هَذِهِ المَضارِّ بِكُمْ أَولَى، وَأَيْضاً فَإِنَّ عَدَاوَةَ البَشَرِ للشَّيْطَانِ مَوْرُوثَةٌ، فَيَكُونُ أَبْعَثَ لَهُمْ عَلَى الحَذَرِ مِنْ كَيْدِهِ، وفِي هَذا تَنْبِيهٌ عَلَى ما يَأْتِي بِهِ هُوَ وحِزْبُهُ مِنَ المَكَايِدِ الخَفِيَّةِ وَالأَسْبَابِ الدَّقِيقَةِ لإِغْواءِ الخَلْقِ!؛ وأَنَّ ذلِكَ يَحْتاجُ إِلَى مَزِيدِ اليَقَظَةِ والعِلْمِ، وأَنْ يَعْلَمَ مَنْ نَجَّاهُ اللهُ تَعالَى مِن هَذَا أَنَّهُ إِنَّمَا نَجَا بِمَحْضِ التَّوْفِيقِ وَمُجَرَّدِ لُطْفِ اللهِ تَعالَى بِهِ.

واعْلَمْ – زَادَنا اللهُ وإياكَ عِلْما - أَنَّ الفَيْصَلَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ المَسْئُولِ عَنْها وأَمْثالِها أَنْ يَقِفَ المَرْءُ عَلَى صَحِيحِ العِلْمِ مِن كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَواتُ اللهُ وسَلامُهُ علَيهِ، إِذْ بِذلكَ يَتَمَيَّزُ الحَقُّ مِن الباطِلِ، ويُعْلَمُ الخَطَأُ مِن الصَّوابِ، **وهَذا يَقْضِي بِضَرُورَةِ العَمَلِ عَلَى نَشْرِ العِلْمِ**

والفَهْمِ بَيْنَ الخاصَّةِ والعامَّةِ، وأنْ يَكُونَ العِلْمُ رَدِيفاً لِلجِهادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، بَلْ رُوحاً لَهُ.

وعَلَيْنا أَنْ نَأْخُذَ النَّاسَ بالرِّفْقِ فِيما نَقُولُ وفِيما نَفْعَلُ، فَإنَّ الناسَ قَدْ بَعُدَ عَهْدُها بالشَّرْعِ وآثارِ الرِّسالَةِ، وفَشا الظُلْمُ المانِعُ مِن تَبْلِيغِ الحَقِّ إلَى الناسِ، **ولاَ شَيْءَ أَحْوَجُ إلَى الحِكْمَةِ مِن الدَّعْوَةِ إلَى اللهِ – ومِنَ الدَّعْوَةِ إلَيْهِ الجِهادُ بالقَلَمِ والسَّيْفِ - فِي زَمانٍ تَعاظَمَ فِيهِ الْتِقاءُ المَصالِحِ وافْتِراقُها؛ عَلَى وَجْهٍ لا عَهْدَ للمُسْلِمِينَ بِمِثْلِهِ من قَبْلُ!،** فَأَصْحَتِ الكَلِمَةُ التِي تُقالُ؛ والفِعْلُ الذِي يُفْعَلُ؛ لا بُدَّ أَنْ يُحْسَبَ لَهُمَا كَثِيرٌ مِن الحِسابِ؛ وأَنْ يُوزَنا بِمِيزانِ المَصالِحِ والمَفاسِدِ فِي الشَّرْعِ؛ مَعَ رِعايَةِ ما جَدَّ واسْتُحْدِثَ مِن العُلُومِ والأسْبابِ المَشْرُوعَةِ الجارِيَةِ عَلَى وَفْقِ مَقاصِدِ الشّرْعِ الإسْلامِيِّ، **والغايَةُ مِن ذلكَ** أنْ لاَ تُتَّخَذَ كَثِيرٌ مِن الأَقْوالِ والأعْمالِ ذَرِيعَةً إلَى صَدِّ الناسِ عَن الشَّرْعِ وحَمَلَتِهِ فِي الوَقْتِ الذِي يَمْتَلِكُ المُناوِؤُونَ لِلإسلامِ والمُعادُونَ لَهُ الوَسائِلَ التِي يُسَيْطِرُونَ بِها عَلَى الأفْكارِ والعُقُولِ، فَنَكُونَ نَحْنُ - بِإغْفالِنا ذلكَ – كَمَنْ يَبْذُلُ الجُهْدَ فِي حَرْثِ الأرْضِ وزِراعَتِها؛ ويَكْدَحُ فِي سِقايَتِها ورِعايَتِها، ثُمَّ يَحْصُدُ الزَّرْعَ غَيْرُهُ، ويَجْنِي الثِّمارَ سواهُ!.

وقَبْلَ أنْ نُجِيبَ عَن السُّؤالِ المَذْكُور، نُؤَكِّدُ ما أَكَّدْناهُ مِنْ قَبْلُ - فِي غَيْرِ هَذا المَوْضِعِ أيْضاً – مِن **ضَرُورَةِ العِنايَةِ بِأُصُولِ السِياسَةِ الشَّرْعِيَّةِ ومَا اسْتَجَدَّ مِن نَوازِلِها؛** وأنْ يُجْعَلَ ذلكَ جُزْءاً مُهِمًّا مِن التَّرْبِيَةِ للأجْيالِ، **لأَنَّنا بذلكَ نَقْضِي علَى كَثِيرٍ مِن الأخْطاءِ والمَزالِقِ التِي يَتَذَرَّعُ بِهَا المُغْرِضُونَ للنَّيْلِ مِنَ الإسْلامِ وشَرائِعِهِ ومِنْها الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ.**

ومِن الفِقْهِ فِي الدِينِ أنْ نُقَدِّرَ عَواقِبَ الأُمُورِ قَبْلَ الإقْدامِ علَيْها، وذلكَ لا يَكُونُ إلاَّ بِوَسِيعِ العِلْمِ بِكُلِّيَّاتِ الشَّرْعِ وأُصُولِهِ وقَواعِدِهِ؛ وعَمِيقِ الفَهْمِ لِواقِعِنا ومَا يُحِيطُ بِنَا مِنَ الحَوادِثِ والأُمُورِ، فَإنِ اقْتَضَى ذلكَ أنْ نَتْرُكَ المُباحَ أو المَنْدُوبَ أو الواجِبَ لما هُوَ أَوْلَى مِنْهُ تَركْناه، وإنْ اقْتَضَى العُدُولَ عَن فِعْلِهِ فِي وَقْتٍ أوْ مَكانٍ أُرْعَى للمَصْلَحَةِ وأَنْسَبَ لأُصُولِها أَحْرَزْناهُ، وكُنَّا بِذلكَ قَدْ أَخَذْنا بُيُسْرِ الإسْلامِ وسَماحَتِهِ؛ وراعَيْنا قِيامَ الدَّعْوةِ إلَى اللهِ والجِهادِ فِي سَبِيلِهِ علَى التَّوافُقِ بَينَ السُّنَنِ الشرْعِيَّةِ والقَدَرِيَّةِ التِي تُوصِلُ إلَى نِهايَةِ المَطْلُوب.

وهَذا الذِي أشَرْنا إلَيْهِ من الإعْدادِ الواجِبِ الذِي نَتَصَدَّى بِهِ لِكَيْدِ عَدُوِّ الدِّينِ ومَكْرِهِ، ولَيْسَ ذلكَ هُوَ المُطْلُوبَ فَحَسْبُ؛ بَلْ إنَّهُ مِن حِمَايَةِ صُفُوفِنا فِي دَاخِلِها؛ ومِنْ إحْكامِ قَواعِدِنا، ومِن سَدِّ ثَغَراتٍ لا نَزَالُ نُؤْتَى مِن قِبَلِها!، وإلاَّ فَنَحْنُ مِن بَعْدِ ذلكَ نَحْتاجُ إلَى خَوْضِ المَيادِينِ وتَقَدُّمِ الساحَاتِ، وأَنْ نَمْلِكَ زِمامَ المُبادَرَةِ فِي دِفاعِنا عَن دِينِنا وأُمَّتِنا.

وليَعْلَمِ السائِلُ – وَفّقَهُ الله - أَنّ تَبْدِيلَ الحقَائِقِ وإضاعَتَها بِتَبْدِيلِ أَسْمَائِهَا لِصَدِّ الناسِ عَنْهَا؛ وإِنْ كانَتْ قَدِيمَةً مِن صِفاتِ اليَهُودِ لَعَنَهُمُ اللهُ؛ إِلاَّ أَنَّهُ كَيْدٌ لا يَنْطَلِي إِلاَّ عَلَى ضِعافِ العِلْمِ والبَصِيرَةِ، وإِنَّما ذَمَّهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتابِهِ وَحَذَّرَ المسْلِمِينَ مِنْهَا لِمَا يَقْتَضِيهِ ذَلكَ مِنَ الفَسَادِ العَظِيمِ وَالشرِّ المُسْتَطِيرِ بِتَحْرِيفِ الكلِمِ عَنْ مَواضِعِهِ؛ وَتَعْطِيلِ أَحْكامِ اللهِ تَعَالَى التِي شَرَعَهَا رَحْمَةً بالخلْقِ لِجَمْعِهَا بَيْنَ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ولأَنَّ العامَّةَ من الناسِ كَثِيراً ما يَتَعَلَّقُونَ بِظَواهِرِ الأُمُورِ وتَغِيبُ عَنْهُمْ بَواطِنُها، ولِذا تَرَى الفِتِنَ والأَباطِيلَ يَرُوجُ أَمْرُهَا أَوَّلَ ما يَرُوجُ بَينَ العامَّةِ والجُهالِ مِن الناسِ؛ أَوْ ضِعافِ العِلْمِ مِنْهُم، وَلأَجْلِ ذلكَ كانَ هَذَا الصَّنِيعُ مِنَ اليَهُودِ منْ أَعْظَمِ ذُنُوبِهِمُ التِي جَلَبَتْ سَخَطَ اللهِ عَلَيهِمْ واسْتَحَقُّوا بِهَا لَعْنَةَ اللهِ سُبْحانَهُ وغَضَبَهُ، نَعُوذُ باللهِ تعالَى من ذلكَ.

وقَدْ قَالَ عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ: **{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}**؛ ذَلكَ أَنّ اللهَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ المقدسِ - وَهِيَ الأَرْضُ المقَدَّسَةُ التِي أُمِرُوا بِدُخُولِهَا؛ وَهِيَ القَرْيَةُ المُرَادَةُ هُنَا عَلَى الصَّحِيحِ؛ لا أَرِيحَا وَلا مِصْرُ كمَا قِيلَ-، وَكانَ هذَا لما خَرَجُوا مِن التِّيهِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَعَ يُوشَعَ بنِ نُونَ ؛ وَفَتَحَها اللهُ عَلَيْهِ عَشِيَّةَ جُمُعَةٍ؛ وَحُبِسَتْ لَهُمُ الشَّمْسُ يَومَئِذٍ قَلِيلاً حَتّى تَمَّ لَهُمُ الفَتْحُ, كمَا ثَبتَ عَن النَّبِيِّ فِي الصَّحِيحِ.

فَأُمِرُوا أَنْ يدخلُوا بيتَ المقدِسِ سُجّداً وأنْ يقولُوا حِطةٌّ –أي: احْطُطْ عَنّا خَطَايَانَا وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا-، قَالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ الله عنهُما: مَغْفِرَةً واسْتَغفِرُوا، وَنَحْوُه عَن عَطاءٍ والحسَنِ وَقتادَةَ وغَيْرِهِمْ، وَقَوْلُهُ: **{سُجَّداً}:** أَيْ: شُكْراً للهِ تعالَى عَلَى الفَتْحِ والنّصرِ، وَقيلَ غَيرُ ذلكَ، وَالمعَانِي مُتَقَارِبةٌ، فَخَالَفُوا أَمْرَهُ ودَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتاهِهِمْ وَيَقُولُونَ: (حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ)! كمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَينِ وغَيْرِهما.
وَعِنْدَ مُحَمَّدِ بنِ إِسْحاقَ (حِنْطَةٌ فِي شَعيرَةٍ) رَواهُ عَن ابن عبّاسٍ، وَرُوِيَ نَحْوُهُ عن ابنِ مَسْعُودٍ وَعَطاءٍ ومُجَاهَدٍ وَعِكْرِمَةَ والضَّحَّاكِ والحَسَنِ وغَيْرِهِم، وَرَجّحَ بعضُ العُلماءِ الأَوَّلَ لكوْنِهِ في الصَّحِيحَيْن.

قالَ ابنُ كثِير: وحاصِلُ ما ذَكرَهُ المُفَسِّرُونَ أَنَّهُمْ بَدَّلُوا أَمْرَ اللهِ لَهُمْ مِنَ الخُضُوعِ بالقَوْلِ وَالفِعْلِ فَأُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سُجَّدا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتاهِهِمْ مِنْ قِبَلِ أَسْتاهِهِمْ رافِعِي رُؤُوسِهِمْ!, وَأُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا حِطَّةٌ؛ أي: احْطُطْ عَنّا ذُنُوبَنَا وَخطايانَا، فاسْتَهْزَؤُوا فَقَالُوا: حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ، وَهذَا فِي غَايَةِ ما يَكُونُ مِنَ المخَالَفَةِ والمُعَانَدَةِ، ولِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذابهُ بِفِسْقِهِمْ - وَهُو خُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ - وَلِذَا أَتَى بالظّاهِرِ مَوْضِعَ المضْمَرِ وَكرّرَ وصْفَهُمْ بالظلمِ لتعظِيمِ الأَمْرِ عَلَيْهِمْ؛ وَمُبالَغَةً في تَقْبيحِ فِعْلِهِمْ وَشَأْنِهِمْ. انْتهى.

قالَ الكِيا الهرّاسيُّ: **فيهِ دليلٌ عَلى أَنَّهُ لا يَجوزُ تغييرُ الأقوالِ المنصُوصِ عليهَا، وَأَنَّهُ يَتَعَيَّنُ اتِّبَاعُهَا.**

وقالَ الرازيُّ: يُحْتَجُّ بهِ فِيمَا وردَ من التَّوْقِيفِ فِي الأَذْكارِ وَالأَقْوَال، وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ تَغْييرُهَا.

ومن ذلك قوله تعالى عنهم: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}؛ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كانُوا يَتَأَوَّلُونَ عَلى غَيرِ تَأْوِيلِهِ وَيُفَسِّرُونَهُ بِغَيْرِ مُرَادِ اللهِ تعَالى قَصْداً مِنْهُمْ وافْتِرَاءً عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَكانُوا يَقُولُونَ: سَمِعْنا مَا قُلْتَهُ يا مُحَمَّدُ ولا نُطيعُك، **{وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ}**: أي: اسْمَعْ لا سَمِعْتَ!، قاله ابنُ عباس؛ واخْتارَه ابنُ جَرير.

وَيَقُولُونَ راعِنا: يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ راعِنا سَمْعَكَ؛ وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الرُّعُونَةَ، يَتَطاوَلُونَ بِذلكَ عَلَى مَقامِ النَّبِي ﷺ، فَيُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ المعْنَى العَرَبِيَّ؛ قيل: وَكانَتْ لُغَةَ الأَنْصَارِ؛ وَهُمْ يُبْطِنُونَ السبَّ والسُّخْرِيَةَ؛ وَهُوَ مَعْنَى هَذَا اللفْظِ فِي لُغَتِهِمْ، فَنَهَى اللهُ تَعَالى المؤْمِنينَ عَنْ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالكافِرِينَ فِي مَقَالِهِمْ وَفِعَالِهِمْ، وَأَنْ يُخَاطِبُوا النَّبِيَّ ﷺ بِما لا يَحْتَمِلُ النَّقْصَ وَلا يَصْلُحُ للتَّعْرِيضِ، فلا يُجَارُوهُمْ فِي هَذَا اللفْظِ المُحْتَمِلِ؛ وَإِنْ كانُوا لا يَقْصِدُونَ إِلاّ المَعْنَى المشْرُوعَ، وَأَنْ يَعْدِلُوا إِلى لَفْظٍ لا شُبْهَةَ فِيهِ، فَقَالَ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**؛ وقولُهُ: واسْمَعُوا: أي: اسْمَعُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ونُهِيتُمْ عَنْهُ, فَأَطيعُوا اللهَ فِي تَرْكِ خِطَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ اللفْظِ وَخَاطِبُوهُ بِمَا أُمِرْتُمْ بِهِ, ولا تُخَاطِبُوهُ بِمَا يَسُرُّ اليَهُودَ؛ بَل تَخَيَّرُوا لِخِطَابِهِ مِنَ الأَلْفَاظِ أَحْسَنَهَا وَمِنَ المَعَانِي أَدَقَّهَا.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: فَفِيهِ دَلالَةٌ عَلَى النَّهْيِ الشدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَالوَعِيدِ عَلَى التَّشَبُّهِ بِالكُفَّارِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَلِباسِهِمْ وَأَعْيادِهِمْ وَعِبَادَاتِهِم؛ وغَيْرِ ذلكَ مِنْ أُمُورِهِمُ التِي لَمْ تُشْرَعْ لَنَا وَلَمْ نُقَرَّرْ عَلَيْهَا.

وَقالَ أبو الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللهُ فِي فَتْحِ البيان (1/173): **وَفِي ذلكَ دَليلٌ على أنه يَنْبَغِي تَجَنُّبُ الأَلْفَاظِ المُحْتَمِلَةِ للسَّبِّ وَالنَّقْصِ؛ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدِ المتَكَلِّمُ بِها هذَا المَعْنَى المُفِيدِ للشَّتْمِ سَداً للذَّرِيعَةِ وَدَفْعاً للوَسِيلَةِ، وَقَطْعاً لِمَادَّةِ المفْسَدَةِ والتَّطرُّقِ إِلَيْهِ. انتهى.**

قلتُ: فَهذَا من قَبائِحِ اليهودِ الكثِيرَةِ التِي بَيّنَها القُرْآنُ وَفصّلَها تَفْصيلاً، وَقَدْ عدّ شَيْخُنَا أَبُو زَكرِيّا -نفعَ اللهُ بِهِ- فِي (مُقَدِّمَةِ التِّبْيَان) مِنْهَا فِي سُورَةِ البَقَرَةِ إِحْدى وَسَبْعِينَ قَبيحَةً، وفِي آل عِمرانَ: أَرْبَعينَ، وفِي النِّسَاءِ: خَمْساً وَثلاثِينَ بِحَذْفِ التَّكْرارِ، وَفِي المائِدَةِ: خَمْساً وَأَرْبَعِينَ، وَفِي الأَعْرَافِ: إِحْدَى عَشْرَةَ، وَفِي التوْبَةِ: اثْنَيْ عَشَرَ، ثُم ذكرَ قبائِحَهم في بقيّة السُّور إِلى نِهايةِ المُصْحَفِ، وهِيَ نَحْوُ اثْنَتَيْنِ وَعشرين سُورَةً، والله أعلم.

فَجُمْلَةُ قَبائِحِهِمْ التِي ذَكرَها القرآنُ علَى هذَا مائَتانِ وَستٌّ وَثلاثُونَ قَبِيحَةً! بإِحْصَاءِ شَيْخِنَا، وَتَبْدِيلُ الأَلفَاظِ واحِدةٌ مِنْهَا، واللهُ المسْتَعانُ.

قالَ شَيْخُنَا: والغَرَضُ مِنْ ذلكَ مَعْرفَةُ حَقِيقَتِهِمْ وَالتَّحْذِيرُ عَمَّا ارْتَكبُوا مِنَ القَبائِحِ والفَضَائِحِ؛ وَالمثالِبِ وَالمعَايِب.

قال: ثُمّ اعْلَمْ أن هذِه القبائحَ المذْكورَةَ سابقاً فِي اليهودِ والنّصَارَى انْتَقَلتْ إِلى هَذِهِ الأُمَّةِ حَسْبَ تَصْدِيقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الصّادِقُ المَصْدُوقُ ﷺ: لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بشِبْر؛ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ؛ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ! قيلَ: يا رَسولَ الله اليهودَ والنصارى؟ قالَ: فَمَنْ؟ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. (مقدمة التبيان: 285).

وَهَكذَا ثَبَتَ فِي السّنةِ أيضاً من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنّهم كانوا يأْتونَ النبيَّ ﷺ فيقولُون: (السَّامُ عَلَيْكَ) بِغَيرِ اللامِ!؛ يُريدُونَ الموْتَ، فَيُجَيِّبهمْ ﷺ بِقَوْلِهِ: وَعَلَيْكُم. وَبِذَلِكَ أَمَرَنَا، فَإِنَّمَا يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ وَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَنَحْوُهُ عَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ، وَرَواهُ أَحْمَدُ فِي المسْنَدِ عَنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَرُوِيَ عَن ابنِ عَبّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنّ المنافِقِينَ كانُوا يَصْنَعُونَ ذلكَ أَيضاً.

وهو قوله تعالى: **{وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ}؛** وذكر المفسرون أنهم اليهود.

ثُمّ إِنّ هؤلاءِ الكفارَ أخذَ عنهم قبائحَهُم هذهِ كفارُ مكةَ ومُشْرِكُو قُرَيْشٍ لَمّا أَرادُوا صدَّ الناسِ عن النبيِّ ﷺ، فقالُوا عنهُ شاعِرُ وَكاهِنٌ وَسَاحِرٌ ومَجْنُونٌ!, مع أنّهم كانُوا يَعْلَمُونَ أنهُ - عليه الصلاةُ والسلامُ - لم يكنْ فِي شَيءٍ مِنْ ذَلكَ؛ وَقَدْ برَّأَهُ اللهُ تعالى مِنْ جَمِيعِه، فَهُمْ أهلُ اللغَةِ والبيانِ وأَرْبابُ الخطَابَةِ والبَلاغَةِ والنثْرِ والشِّعْرِ, ومَعادِنُ الفَصَاحَةِ, وكانَ فيهِمْ من فُحُولِ الشعراء منْ سارَتْ بأَشْعَارِهِمُ الرُّكْبانُ, وقَدْ لَبِثَ النبيُّ ﷺ فِيهِمْ قَبْلَ ذلكَ عُمُراً مديداً؛ لَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ فيهِ ولا بَيْتٌ واحِدٌ مِنَ الشِّعْرِ, وقَدْ عَرَفُوهُ وعَرَفُوا بُحُورَهُ وَأَوْزَانَهُ، ثُم هُمْ قَدْ عَرَفُوا الكهَانَةَ وزَمْزَمَتَهَا, والسحرَ وشَعْوَذَتَهُ ونَفْثَهُ, والجُنُونَ وخَنْقَهُ، فأَيْنَ كُلُّ هذا مما كانُوا يَعرفُونَه عن النبيِّ ﷺ منَ الصدْقِ والأمانةِ ورَجَاحَةِ العقلِ والبُعْدِ عن مواطنِ الطَّيْشِ والخِفَّةِ واللهْوِ والسَّفَهِ التِي كانَ يَرْتَادُهَا أكابِرُهُم والمعَظَّمُونَ فِيهِم؟! ومَعَ هذا كُلِّهِ لَمْ يَرْعَوُوا عَنْ تَزْوِيرِ الحقَائِقِ واخْتِلاقِ الأكاذِيبِ والفِرَى ورَمْيِهِ بِكُلِّ ذلكَ لَمّا أَرادُوا تنفيرَ النَاسِ عنهُ والحيلولةَ بينَهُ وبينَهُمْ.

وَعَلى هذِهِ العادَةِ اليَهُودِيَّةِ جَرَى كُلُّ مَنْ يَرُومُ نَشْرَ الفَسادِ فِي البلادِ وبَيْنَ العِبادِ, وَمَنْ يَرْمِي إِلَى تَرْوِيجِ باطِلٍ وتَلْبِيسِ الحَقِّ علَى الناسِ، **وَقَدْ ذَكرَ ابنُ حَزْمٍ** -رَحِمَهُ اللهُ- فِي إِحْكامِ الأَحْكامِ **أَنّ أَوّلَ مَنْ كانَ يَفْعَلُ ذَلكَ** هُمْ فُسَّاقُ باعَةِ الحَمِير!، فَإِنّهُم كانُوا يَتَّخِذُونَ لها مَرَابِطَ يُسَمُّونَها بِأَسْماءِ القُرَى والبِلادِ، فَيقُولُونَ: مَرْبَطُ الكُوفَةِ ومَرْبَطُ البَصْرَةِ ومَرْبَطُ بَغْدادٍ؛ ونحوَ ذلك، فَإِذَا قَدِمُوا إِلَى السُّوقِ لِبَيْعِهَا قَالُوا: هَذَا وَاللهِ قَدْ جاءَ مِن تَوِّهِ مِن البصْرةِ أَوْ مِنَ الكُوفَةِ أَوْ غَيْرِها، فَيُخْدَعُ المُشْتَري لِما يَرَى بِها مِنَ الجلادَةِ والقُوَّةِ مَعَ كونِها قَدِمَتْ مِنْ تِلْكَ الأَمَاكِنِ البَعِيدَةِ، فَيَزِيدُ فِي ثَمَنِهَا لأَجْلِ ذلكَ!.

ومما ورد في هذا المعنى أيضاً ما حكاه الله تعالى عن فرعون أنه قال: **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}**؛ يَخْشَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُضِلَّ مُوسَى الناسَ ويُغَيِّرَ رُسُومَهُمْ وَتَقَالِيدَهُمْ وَعَادَاتِهمْ وأَعْرَافَهُمْ!، وَهَذَا كمَا يُقَالُ فِي المَثَل: صارَ فِرْعَوْنُ مُذَكِّراً: يَعْنِي وَاعِظاً يُشْفِقُ علَى الناسِ منْ مُوسَى .

وَحَكَى عَنْهُ قولَهُ عنْ نَفْسِهِ: **{قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}**؛ أي: مَا أدْعُوكم إلاَّ إلى طَريقِ الحق والصِّدق والرُّشد. وقد كذبَ – قاتَلَهُ اللهُ- وَإنْ كانَ قومُهُ قدْ أطاعُوهُ واتبعُوهُ، قالَ تعالى: **{فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ}**؛ وقال : **{وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}.**

واعْلَمْ أنَّ قوْلَ فِرْعَوْنَ هذَا عَيْنُ الْمُكابَرَةِ وَالمُعانَدَةِ للحَقِّ أَنْ يُسَمِّيَ مَا عَلَيهِ هُوَ -منَ العلُوِّ والعُتُوِّ, والفَسادِ فِي الأرضِ, واسْتِضْعافِ الخَلْقِ, وجَعْلِهِمْ شِيَعاً, وَتَقْتيلِ أبْنائِهِمْ, واسْتِحْياءِ نِسائِهِمْ، مَعَ الطُّغْيانِ وَالجَبَرُوتِ والكُفْرِ المُسْتَبِينِ- رَشَاداً، ومَا عليه موسى صلوات الله وسلامه عليه: مِنَ الدِّينِ والهُدَى وَدَعْوَةِ الناسِ إلَى الإِسْلامِ وَالتَّوْحيدِ والفَلاَحِ والرُّشْدِ فَسَاداً!.

وَمِثْلُ هَذَا مَا كانَ يَزْعُمُهُ المُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ مِنْ أَنَّهُمْ أَوْلِياءُ البَيْتِ وأَهْلُ الحَرَمِ, وأَنَّهم أَحَقُّ بِهِ مِنَ النبيِّ ومَنْ مَعَهُ, وأَنَّهُم قائمُونَ بالعبادَةِ فيهِ: مِنَ الصلاةِ عِنْدَهُ والطوافِ بهِ وَتَعْظِيمِ حَقِّهِ، وأنّ النبيَّ ومَنْ مَعَهُ لا ولايةَ لَهُم علَيْه ولا حقَّ لهم فيهِ؛ لأنهّم خالفُوا ما كانَ علَيْهِ قوْمُهُمْ ونَبَذُوا دِينَ الآباءِ وَالأَجْدَادِ وَجاءُوا بِما لا يَعْرِفُونَهُ هُمْ وَلا مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِهِمْ، ولأَجْلِ ذلكَ مَنَعُوهُ وأصحابَهُ منَ البَيْتِ عامَ الحُدَيْبِيَةِ، فكذَّبَهم الله تعالى في ذلك كُلِّهِ وهَدَّدهمْ وتوعَّدَهم فقال سبحانَهُ في سُورةِ الأنفال: **{وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}**؛ أي: أنّ كفار مكةَ مُستحِقُّون لعذابِ الله لِمَا ارْتَكَبُوهُ من القبائح فلا شيءَ يمنعُ مِنْ تعذيبِهِم، قيلَ: هو الأسْرُ والقَتلُ يومَ بَدْرٍ، وقيلَ: عَذابُ الآخِرَةِ، لأَنَّهُم صَدُّوا النبيَّ وأَصْحابَهُ عنِ البَيْتِ عامَ الحُدَيْبِيَةِ كمَا قالَ تعالَى: **{هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ}**؛ وما كانُوا أَوْلياءَ البَيْتِ -كَمَا يَزْعُمُونَ- مَعَ ما هُمْ عَلَيْهِ مِن الكُفْرِ والشِّرْكِ، وإنّما أولياؤه المتقونَ المُجْتَنِبُونَ للشِّرْكِ والمعاصِي، قال مجاهدٌ: مَنْ كانُوا وَحَيْثُ كانُوا، كمَا قال تعالى: **{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}.**

وَأَمَّا زَعْمُهُمُ القِيامَ بالعبادةِ فما كان شيءٌ مما يَعُدُّونَهُ صلاةً وَعبادَةً إلاَّ مكاءً، أي: (صَفِيراً)!، وهذَا مُبالَغَةٌ فِي تَقْبيحِهِمْ فإنَّهُ يُقَالُ: مَكاَ اسْتُ الدَّابَّةِ

إذَا نَفَخَتِ الرِّيحَ، وَتَصْدِيَةً: أي: تَصْفِيقاً وَصِياحاً، فَوضَعُوا ذلك موضِعَ الصلاةِ قاصدِينَ بِهِ أَنْ يَشْغَلُوا المسلِمينَ المُصَلِّينَ عندَهُ عن صلاتِهِمْ، فَفَوَّتُوا بذلِكَ مَا حَقَّهُم أَنْ يَشْتَغِلُوا بِهِ فِي هذَا المكانِ مِنَ الصلاةِ, وَشَغَلُوهُ بِهَذَا اللعِبِ والخُرَافِ والهَوَسِ، فَهَدَّدَهُمْ لأجْل صَنِيعِهِمْ هَذَا، وَبَالَغَ فِي إدِخْال الرَّوْعَةِ فِي قُلوبِهِم فقالَ: **{فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ},** قالَ مُجاهِدٌ: عذابُ أَهْلِ الإقْرَارِ بالسَّيْفِ, وَعَذَابُ أَهْلِ التَّكْذِيبِ بالصَّيْحَةِ وَالزَّلْزَلَةِ.

وَالمقْصُودُ تَحْذِيرُ المُسْلِمِينَ مِنَ الوُقُوعِ فِي مِثْل ذَلكَ، فَإنَّها خُطّةُ خَسْفٍ جَرَّتْ منْ فَسَادِ الديانَةِ وَتَعْطيل شَرْعِ اللهِ وَأَحْكامِهِ؛ ومُجَاوَزةِ حُدُودِهِ والصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ مَا لا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إلاَّ اللهُ تَعَالَى, وَقَدْ كثُرَ فِي زَمَانِنَا ذَلكَ لِغَلَبَةِ الشرِّ وانْحِسَارِ الخَيْرِ, وَقُعُودِ الكثِيرِينَ مِنَ العُلَمَاءِ عَنْ وَاجِبِ الأمْرِ بالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنِ المُنْكرِ, فَوقَعَ النَاسُ فِي مِثْل مَا أَخْبَرَ بِهِ النبيُّ أَنَّهَ يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ قَوْمٌ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ يُسَمُّونَها بِغَيْر اسْمِهَا!، **فَهَكذَا يَصْنَعُونَ الآنَ فِي مَسائِلَ كثيرة:**

يُسَمُّونَ ما أَمَرَ الله تَعالَى بِهِ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَإفْرادِهِ سُبْحانَهُ بالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالنَّذْرِ والدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالتَّوَكُّل وَالإنَابَةِ تَعَدِّياً عَلى حُرْمَةِ الأَوْلِياءِ وَتنقّصاً مِنْ مَقَامِهِمْ، **وَيُسَمُّونَ** عِبادَةَ غَيرِهِ سُبْحَانَهُ وَاتِّخَاذَ الأَوْلِياءِ مَعَهُ وَدُعاءَهُمْ والاسْتِغَاثَةَ بِهِمْ دِيناً وَتَوْحِيداً!.

وَيُسَمُّونَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَالتَّقَيُّدَ بِها فِتْنَةً وتَعالِياً عَلى الأئمَّةِ وَتَطاوُلاً على العُلَمَاءِ، وَبَلادَةً وَعَباءً!، **وَيُسَمُّونَ** نَبْذَهَا والتَّمَحُّلَ لِرَدِّها بِأَنْواعِ التَّأويلاتِ الفاسِدَةِ؛ وَالتَّقْلِيدَ المَشْؤُومَ اتِّباعاً وَتَعْظِيماً للمَتْبُوعِ؛ وتبجيلاً لِلْمُطاعِ، وَفِطْنَةً وَذَكاءً!.

وَيُسَمُّونَ التَّحَاكُمَ إلى دِينِ اللهِ وَكِتابِهِ وَشَرْعِهِ رَجْعِيَّةً وَتَخَلُّفاً وَتَعَنُّتاً وَتَضْييقاً، **وَيُسَمُّونَ** التَّهَافُتَ عَلى الشَّرَائِعِ الوَضْعِيَّةِ الكافِرَةِ تَقَدُّماً وَتَيْسيراً؛ وَتَوْسِيعاً وَتَسْهيلاً!.

وَيُسَمُّونَ (الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ) - الّتِي هِيَ صَرِيحُ الكُفْرِ بِرَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ لأَنَّها تَقْضِي بِجَعْلِ آراءِ البَشَرِ وأَهْوائِهِمْ مَصْدَراً للتَّشْرِيعِ والتَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ - وَمَا شَاكَلَهَا مِنَ المذَاهِبِ وَالنِّحَل الْمُبْتَدَعَةِ الْمُحْدَثَةِ حُرِّيَّةً وحَضارَةً وتَنَوُّراً، **وَيُسَمُّونَ** مَا أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ مِنْ إفْرادِهِ وَحْدَهُ بِحَقِّ التَّحْليل وَالتَّحْرِيمِ وَالأمْرِ وَالنَّهْي خَارِجِيَّةً وَتَكْفِيراً وَتَشَدُّداً!.

وَيُسَمُّونَ مُوَالاةَ الأَعْدَاءِ وَالْمُسَارَعَةَ فِي مَرْضَاتِهِمْ وتَمْكِينَهُمْ من دِيارِ المُسْلِمِينَ سِياسَةً وحِنْكَةً وحِكْمَةً ومَصْلَحَةً، **وَيُسَمُّونَ** مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ مُعادَاتِهِمْ وَالبراءَةِ مِنْهُمْ ومِنْ أَدْيانِهِمُ الباطِلَةِ حُمْقاً وَرُعُونَةً وسَفَهاً وَخِفَّةً وَطَيْشاً!.

وَيُسَمُّونَ طَعْنَ الطّاعِنينَ - مِنَ مَرَدَةِ الإنْسِ إخْوانِ الشَّياطِينِ مِمَّنْ يُسمَّوْنَ بِالكُتَّابِ وَالشُّعَرَاءِ وَالأُدَباءِ والصُّحُفِيِّينَ - فِي اللهِ سُبْحَانَهُ؛ أَوْ فِي

مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَوْ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى؛ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ تَحَرُّراً؛ وَحُرِّيَّةَ فِكْرٍ؛ وَصَوْتَ تَعْبِيرٍ؛ وَنِداءَ وِجْدَانٍ؛ وَصَرْخَةَ ضَمِيرٍ!. **وَيُسَمُّونَ** الغَيْرَةَ عَلَى مَحَارِمِ اللهِ أَنْ تُنْتَهَكَ, وَعَلَى شَرْعِهِ أَنْ تَنالَهُ يَدُ السُّوءِ, وَالغَضَبَ للهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَدِينِهِ؛ والأَخْذَ عَلَى يَدِ المُتَطاوِلِ الأَثِيمِ؛ كَبْتاً لِلْحُرِّيَّةِ ومُصادَرَةً للرَّأيِ وَبَغْياً وَظُلْماً وَعُدْوَاناً!.

وَيُسَمُّونَ انْتِهابَ خَيْرَاتِ الشُّعُوبِ وَالتَّعَدِّيَ عَلَيْهَا؛ وَتَرْكَهُمْ عُرْضَةً للفَقْرِ وَالجَهْلِ وَالمَرَضِ تَوازُناً اقْتِصادِيًّا ومُحافَظَةً وتوفيراً ، **أَمّا سَعْيُ** الأَمَمِ إِلَى اكْتِسابِ المالِ مِن الوُجُوهِ التِي أَحَلَّهَا اللهُ تَعَالَى – وعلَى رَأسِها المَغانِمُ التِي تَحْصُلُ بالجِهادِ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ منَ الزَّكاةِ والإِنْفَاقِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى المالِ الَذِي هُوَ أَحَدُ الكُلِّيَّاتِ الخَمْسِ التِي جاءَتْ الشرائِعُ بِحِفْظِهَا؛ فَذَلِكَ هُوَ أَكْلُ الأَمْوالِ بالباطِلِ والقهرُ وَالاسْتِبْدَادُ!.

وَالجُيُوشُ الصَّلِيبِيَّةُ تَغْزُو بِلادَ الْمُسْلِمِينَ فَتُحِيلُ لَيْلَهَا نَهاراً وَنَهَارَهَا لَيلاً, وَتَجْعَلُ عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَعِزّةَ أَهْلِهَا أَذِلةً, فَذَلِكَ هُوَ الأَمْنُ وَالسَّلامُ وَالدَّعةُ وَالرَّاحَةُ وَالْهَنَاءُ وَالخَلاصُ المَوْعُودُ والسعادَةُ التِي لا سَعادَةَ وَراءَها!، **فَإِنْ قَامَ عُيُورٌ** يَذُبُّ عَنْ دِينِهِ وَأُمَّتِهِ وَعِرْضِهِ فَجُرْمٌ لا يُحْتَمَلُ وَذَنْبٌ لا يُغْتَفَرُ!.

وَبَيْعُ فِلِسْطِينَ لليَهُودِ يَسمُّونَهُ سَلاما واسْتِقْراراً، **وَتَمْكِينُ الصَّلِيبِيِّينَ** مِنْ بِلادِ الْمُسْلِمِينَ لِمُحَارَبَةِ الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ يُسَمُّونَهُ اتِّفَاقاً وَوِئَاماً؛ والتِزَاماً بالعُهُودِ والمَواثِيقِ!، فَتَأَمَّلْ!؛ كَيْفَ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ عَمَلِهِمْ حَتَّى غَدَتْ هَذهِ المَواثِيقُ عِنْدَهُمْ مَحَلَّ التَّبْجِيلِ والتَّعْظِيمِ، ولا يُبالُونَ مِن بَعْدُ بِنَقْضِ عَهْدِ اللهِ ومِيثاقِهِ؛ وخِيانَةِ دِينِهِ؛ وتَجاوُزِ حُدُودِهِ!.

وَيُسَمُّونَ تَدْمِيرَ الأَخْلاقِ؛ وَهَدْمَ الْمَبادِئِ؛ وَالعُدْوانَ عَلَى القِيَمِ؛ والغَرَقَ فِي حَمْأَةِ الشَّهَواتِ؛ حُرِّيَّةً وانْطِلاقاً!، **وَيُسَمُّونَ** التَّمَسُّكَ بِمَعالِي الأَخْلاقِ وحَسَنِ الشَّمَائِلِ وَحَمِيدِ الصِّفَاتِ؛ مِن الطُّهْرِ والعَفافِ واجْتِنابِ مواطِنِ الرَّيْبِ؛ قُيوداً وَسِجْناً وَأَغْلالاً!.

وَيُسَمُّونَ الفُجُورَ والخَلاعَةَ والْمُجُونَ فناًّ ورُقِيّاً وَنُجُومِيَّةً، **وَيُسَمُّونَ** العِفَّةَ وَالنَّزَاهَةَ وَالنَّقَاءَ وَصِيانَةَ النَّفْسِ عَنِ الدَّنِيَّاتِ تَزَمُّتاً وَانْغِلاقاً!.

وَيُسَمُّونَ الاعْتِدَاءَ عَلَى الْحُقُوقِ؛ وَالسَّرِقَةَ؛ وأَكْلَ أَمْوالِ الناسِ بالباطِلِ كَيَاسَةً؛ (وَشَطَارَةً)؛ وَتَدْبِيراً، **وَيسُمُّونَ** الأَمَانَةَ وَكَفَّ النَّفْسِ عَمَّا حرَّمَ اللهُ عَجْزاً وَقُصُوراً وَبَطالَةً وَكَسَلاً!.

وَيُسَمُّونَ الذِّلَّةَ وَالْمَهَانَةَ وَالصَّغَارَ وَبَيْعَ الذِّمَمِ وَالتَّنَازُلَ عَنِ الْحُقُوقِ شَجَاعَةً وَإِقْدَاماً وَثَباتاً!، **وَيُسَمُّونَ** عِزَّةَ النَّفْسِ والذبّ عَنِ الكرَامَةِ والدِّفَاعَ عَنِ الحقّ والأَنفَةَ مِنْ تَسَلُّطِ الأَعْدَاءِ جُبْناً وَتَخَاذُلاً!.

وَيُسَمُّونَ الرِّبَا (فَائِدَةً), **وَالخَمْرَ** يُسَمُّونَهُ (شَرَاباً), **وَالفَاحِشَةَ** (فَناًّ), **وَالقِمَارَ** (رِبْحاً وَكَسْباً), **وَالمُكُوسَ** (خَرَاجاً)!.

فَكُلُّ هَذَا وَأَمْثَالُهُ لَوْ تَأَمَّلْتَهُ لَوَجَدْتَ الفَسَادَ الوَاقِعَ فِي الخَلْقِ مَرَدّهُ إِلَيْهِ، وَالشرَّ الْمُسْتَطِيرَ بِنَاءَهُ عَلَيْهِ، فَمَا **مِنْ بَلِيَّةٍ إِلاَّ وَهُوَ جَذْرُهَا وَأُسُّها، وَلا رَزِيَّةٍ إِلاَّ وَهُوَ أَصْلُهَا وَفَصْلُهَا، ثُمَّ إِنّ الدَّاهِيَةَ الْمَدْهِيَّةَ وَالفِتْنَةَ الصَّمَّاءَ العَمِيَّةَ؛ أَنْ يُجَارِيَ بَعْضُ العُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ مَنْ يُرَوِّجُ لِهَذِهِ الأَلْفاظِ مِنَ الْمُغْرِضِينَ**، أَوْ يَلْهَجَ بِمَا تَلْهَجُ بِهِ العَامَّةُ مِنْ ذَلكَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكانٍ، إِمَّا عَفْلَةً مِنْهُمْ وتَهاوُناً؛ أَوْجَهْلاً بِما وَراءَها مِن المَقاصِدِ والغاياتِ ؛ وَإِمَّا مُحاكاةً لِمَا اعْتَادَهُ الأَكْثَرُونَ ودَرَجُوا علَيهِ حَتَّى أَلِفَتْهُ أَسماعُهُمْ؛ ولَمْ يَلْبَثْ أنِ استَقَرَّ فِي عُقُولِهِم ونُفُوسِهِم, فَيَرَى فِي مُخَالَفَتِهِمْ سَبَباً لِنَفْرَةِ النَّاسِ مِنْهُ وَصُدُودِهِمْ عَنْهُ، وَإِمّا حَذَراً مِمّا يَجْلِبُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَيَجُرُّ إِلَيْهِ مِنْ فَواتِ دُنْيا يُصِيبُهَا أَوْ أَذِيَّةٍ تَمَسُّه.

وَعَلَى شاكِلَةِ ما ذكَرْناهُ الأَلْفَاظُ الْمَذْكُورَةُ فِي السُّؤَالِ، فَإِنَّ أَعْداءَ الإِسْلامِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ رُكْنُ الدِّينِ الذِي بِهِ قِوامُهُ؛ وَبِهِ تَقُومُ دَوْلَةُ التَّوْحِيدِ؛ وتُقَوَّضُ خِيامُ الكُفْرِ وَالتَّنْدِيدِ، أَخَذُوا يَصُدُّونَ النّاسَ عَنْهُ بِكُلِّ آلَةٍ وَوَسِيلَةٍ!, وَيَرْمُونَ أَهْلَهُ بِالأَلْفَاظِ الْمُنَفِّرَةِ الِتِي تَمُجُّهَا الأَسْمَاعُ وَتَعَافُهَا النُّفُوسُ!، فَتَارَةً يُسَمُّونَهُ إِرْهَاباً؛ وَتَارَةً تَطَرُّفاً؛ وَتَارَةً عُدْواناً؛ وأُخْرى ظُلْماً, وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَلْفَاظِ الْمُخْتَرَعَةِ الْمُبْتَدَعَةِ التِي لا يَعْجَزُ عَن مِثْلِها سَفَلَةُ الخَلْقِ وأَوْباشُ الناسِ، وَالتِي لا تَكُفُّ عَنْهَا أَلْسِنَتُهُمْ وَلا نِهَايَةَ لَهَا وَلا حدَّ يَقِفُونَ عِنْدَهُ، فَإِنَّ مَنْ يَفْتَرِي مَا يَرْمِي بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ لِصَدِّ النّاسِ عَنْهُ؛ لا يَرْدَعُهُ رَادِعٌ وَلا يَزْجُرُهُ زَاجِرٌ، كمَا قِيلَ:

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ ما يَقُـ لُ فَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَـة!.

وَفِي الْمُعْجَمِ الوَسِيطِ: الإِرْهَابِيُّونَ: وَصْفٌ يُطْلَقَ عَلَى الّذِينَ يَسْلُكُونَ سَبِيلَ العُنْفِ وَالإِرْهَابِ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ.
وَفِي الْمُنْجِدِ: أَنَّ كَلِمَةَ الإِرْهَابِيِّ تَدُلُّ عَلَى كُلِّ مَنْ يَلْجَأُ إِلَى الإِرْهَابِ لإِقَامَةِ سُلْطَةٍ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللهُ عَنْهُ: هَذا اللفْظُ بِهَذا المَعْنَى لا وُجُودَ لَهُ فِي كُتُبِ اللغَةِ؛ ولا فِي كَلامِ المُتَقَدِّمِينَ، وإِنَّما هُو اصْطِلاحٌ مُحْدَثٌ مُخْتَرَعٌ، ويُقالَ إِنَّ اللفظَ استُعْمِلَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي أُوْرُوبا للدّلالَةِ علَى العُنْفِ السياسِيِّ أَثْناءَ الثَّوْرَةِ الفَرَنْسِيَّةِ التِي كانَتْ بَيْنَ عامَي (1789 و 1799)؛ وذلكَ حِينَ اسْتَعْمَلَ بَعْضُ الذِين اسْتَوْلَوا علَى السُّلْطَةِ العُنْفَ ضِدَّ أَعْدائِهِمْ؛ وعُرِفَتْ فَتْرَةُ حُكْمِهِمْ باسْمِ عَهْدِ الإِرْهاب، فَقامَ أَمْثالُ (كُوثُون) و (سَانْجِيسْتْ) بِحَمْلَةِ قَتْلٍ وإِعْدامٍ للمُعارِضِينَ شَمِلَتْ أَنْحاءَ فَرَنْسا؛ وبَلَغَ عَدَدُ مَن قُتِلَ فِي (بارِيسَ) وحَدَها فِي الأَسابِيعِ السَّتَّةِ الأَخِيرَةِ من العَهْدِ المَذكُورِ نَحْوَ (1400) مِن البَشَرِ!، ومِن جُمْلَةِ سُكانِ فَرَنْسا بَلَغَ عَدَدُ مَن قُتِلُوا (بالمِقْصلَةِ) نَحْوِ أَرْبَعِينَ أَلْفاً!، وأُقْتِيدَ إِلَى السجْنِ نَحْوُ ثَلاثَمائةِ أَلَف!، واسْتُعْمِلَ اللفْظُ فِي أَمْرِيكا أَيْضاً بَعْدَ الحَرْبِ الأَهْلِيَّةِ عامَ (1865) بِقِيامِ جَماعَةٍ عُنْصُرِيَّةٍ تُعْرَفُ باسْمِ (كُوكْلُوكْس كلان) ضِدَّ السُّودِ والمُتَعاطِفِينَ مَعَهُم!.

وعَلَى كُلِّ حالٍ فَلَيْسَ المقْصُودُ هُنا الحَدِيثَ عَن تاريخ ذلكَ فِي أُمَمِ الغَرْبِ ولا غَيْرِها، وإنَّما المُرادُ أنَّهُ بِهَذا المَعْنَى مِن المُصْطَلَحاتِ الوافِدَةِ الدَّخِيلَةِ عَلَى أَهْلِ الإسلامِ؛ شَأنُهُ فِي ذلكَ شَأنُ غَيرِهِ من الألْفاظِ (كالأصولِيَّةِ) و (التَّطَرُّفِ) ونَحْوِها؛ كما كانَ يُقالُ بالأَمْسِ: (رَجْعَيَّةٌ ورَجْعِيٌّ)؛ وكما اخْتَرَعَ الحَداثِيُّونَ الجُدُدُ (الماضَوِيَّةَ) و (التارِيخانِيَّةَ) نِسبَةً إلَى التارِيخِ القَدِيمِ!؛ و (الأُمَمِيَّةَ)؛ **وكُلُّها يُرِيدُونَ بِها المُسْلِمَ المُسْتَمْسِكَ بِدِينِ الإسْلَامِ،** كما تَرى ذلكَ مَبْسُوطاً فِي مُعْجَمِ المَناهِي اللفْظِيةِ لبَكْرِ بن عَبْدِ اللهِ أبو زَيدٍ رَحِمَهُ الله.

أمّا لَفْظُ (الإرْهابِ) بالمَعْنَى الذِي اخْتَرَعَهُ أعْداءُ الإسْلامِ؛ ثُمَّ جاراهُمْ فِيهِ المُرْصَدُونَ لتَبَنِّي نَفَثاتِ الأعْداءِ فِي أُمَّتِنا!، ثُمَّ شاعَ عَلَى الألْسِنَةِ وانْتَشَر، ثُمَّ استَعْمَلَهُ بَعْضُ العُلَماءِ والطَّلَبَةِ!، وهُو الذِي نَقَلْناهُ عَن المُعْجَمِ والمُنْجِدِ فَهَذَا لا مَحَلَّ لَهُ مِن الشرْعِ، لأنَّ السِّياسَةَ فِي الإسْلامِ مِن الإسلامِ، **فَإنْ كانَ المُرادُ أنْ يَسْعَى المُسْلِمُونَ إلَى إقامَةِ دَوْلَةِ الإسْلامِ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ وأحْكامِهِ التِي جاءَ بِها الوَحْيانِ الشرِيفانِ فَذلكَ واجِبٌ عَلَى المُسْلِمِينَ لا يَسَعُهُمْ تَرْكُهُ.**

ثُمَّ إنْ كانَ الحاكِمُ قائِماً بِدِينِ اللهِ وشَرْعِهِ لَمْ يَجُزْ لأَحَدٍ أنْ يَخْرُجَ عَلَيهِ، ومَنْ خَرَجَ عَلَيهِ كانَ (باغِياً)؛ وللبُغاةِ أحْكامٌ تَخُصُّهُمْ فَصَّلَها الأئمَّةُ فِي كُتَبِ الفِقْهِ رَحِمَهمُ الله.

وإنْ وَقَعَ مِن الحاكِمِ كُفْرٌ بَواحٌ لا خَفاءَ فِيه؛ وقامَ عَلَيهِ بُرْهانٌ مِن الشَّرْعِ، كانَ هَذا بِمَنْزِلَةِ الصائِلِ الذِي يَتَعَيَّنُ عَلَى المُسْلِمِينَ دَفْعُهُ، فَإنْ أمْكَنَ أهْلَ الحَلِّ والعَقْدِ مِن العُلَماءِ ورُؤُوسِ الناسِ خَلْعُهُ وَالقِيامُ بِأمْرِ الشَّرْعِ وإنْفاذُ أحْكامِهِ مِن غَيْرِ قِتَالٍ وإراقَةِ دَمٍ وجَبَتِ المُبادَرَةُ إلَيهِ.

وإنْ لَمْ يُمْكِنْ إلاَّ بِأَنْ يَنْصِبُوا لِحَرْبِهِ وجَبَ بِشَرْطَيْنِ:

- القُدْرَةِ عَلَى ذلكَ، وتَقْدِيرُها مُفَوَّضٌ إلَى أهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ؛ مِن العُلَماءِ وذَوي الخِبْرَةِ والشَّأنِ مِن عُدُولِ المُسْلِمين، ومَعَ العَجْزِ فَلا تَكْلِيفَ، والواجِبُ حِينَئِذٍ الصَّبْرُ والسَّعِيُ فِي تَحْصِيلِ أسْبابِ القُدْرَةِ؛ والمَيْسُورُ لا يَسْقُطُ بالمَعْسُور.

- والثانِي: أَنْ لا يُفْضِيَ القِيامُ بِذلكَ إلَى مَفْسَدَةٍ أعْظَمَ، فَإنَّ الكُفْرَ لَيْسَ عَلَى مَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ، ولا عَداؤُهُ للإسلامِ والمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْزِلَةٍ واحِدَةٍ، وَرُبَّما كانُوا أقْدَرَ عَلَى تَحْصِيلِ المَصْلَحَةِ فِي زَمانٍ دُونَ آخَرَ، ولأنَّ تَحْصِيلَ المَصْلَحَةِ مِن وَجْهٍ يُفْضِي إلَى تَفْوِيتِها باطِلٌ؛ فَيُمْنَعُ، ومَتَى تَرَجَّحَ حُصُولُ المَصْلَحَةِ بالقِتالِ تَعَيَّنَ ذلكَ، فإنَّ البادِيَةَ والحَاضِرَةَ لَو اقْتَتَلُوا حَتَّى يَذْهَبُوا عَن آخِرِهِمْ كانَ أهْوَنَ مِن أنْ يَنْصِبُوا فِي الأرْضِ الحُكْمَ بِخِلافِ شَرِيعَةِ الله.

فَهَذا حُكْمٌ قَرَّرَهُ الشَّرْعُ؛ سَواءٌ سَمَّاهُ المُولَعُونَ بِهَذِهِ التَعْرِيفاتِ مَطْلَباً سِياسِيّاً؛ أوْ عُنْفاً؛ أوْ إرْهاباً؛ أوْ طَلَبَ سُلْطَةٍ؛ أو ما شاءُوا، فَلا عِبْرَةَ بِذلكَ كُلِّهِ، بَلْ الواجِبُ أنْ يُسَمَّى بِما سَمَّاهُ بِهِ الشرْعُ، وهُوَ مِن نَوْعِ الجِهادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

ولا يَجُوزُ فِي الإسْلامِ الاعْتِداءُ علَى مَعْصُومِ الدَّمِ بِحُكْمِ الشَّرْعِ؛ سَواءٌ كانَ مُسْلِماً، أوْ غَيْرَ مُسْلِمٍ - كالمُعاهَدِ والذِّمِّيِّ مَثَلاً -؛ كَما لا يَجُوزُ إخافَةُ السَبِيلِ؛ ولاَ تَرْوِيعُ مَن جَعَلَ لَهُمُ الشرْعُ حَقَّ الأمْنِ والأمانِ؛ لِتَحْقِيقِ غَرَضٍ وإنْ كانَ مَشْرُوعاً فِي كِتابِ اللهِ تعَالَى وسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَواتُ اللهُ وسَلامُهُ عَلَيهِ، وإنَّما تِلْكَ شِرْعَةُ مَن لاَ دِينَ لَهُمْ مِنَ المُنَظَّماتِ التِي أنْتَجْتْها الأمَمُ الكافِرةُ باللهِ تَعالَى وبِنَبِيِّهِ وشَرْعِهِ؛ مِن نَحْوِ (الألْوِيةِ الحَمْراءِ) فِي إيطاليا؛ و (الجَيْشِ الأحْمَرِ) فِي ألمانيا الغَرْبِيَّةِ؛ والمُنَظَّماتِ اليَهُودِيَّةِ مِثْلِ (الهاغَانا، والهاشُومِير، والبالماخ، والأرْغُونِ، وعِصابَةِ اشْتِيرْن، ومُنَظَّمَةِ كاخ)، ومَجْمُوعَةِ (فالن) فِي أمْرِيكا التِي قامَتْ بِقَتْلِ الناسِ فِي أعْمالٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي سَبْعِيناتِ القَرْنِ العِشْرِينَ للمُطالَبَةِ باسْتِقْلالِ (بُورْتُوريكُو) عَنِ الولاياتِ المُتَحِدَةِ الأمْرِيكِيَّةِ، ونَحْوِها مِن المُنَظَّماتِ التِي يَذكُرُ الباحِثُونَ وَالدارِسُونَ لَها أنَّ الدَّوافِعَ لأعْمالِها مِنْهُ ما هُوَ اقْتِصادِيٌّ أوْ نَفْسِيٌّ أو اجْتِماعِيٌّ أو ثَقافِيٌّ أو تارِيخِيٌّ!، **مِمَّا لا عِبْرَةَ لِشَيْءٍ مِنْهُ فِي الشَّرْعِ إلاَّ أنْ يُوافِقَ أصُولَهُ وقَواعِدَهُ التِي أشَرْنا إلَى بَعْضِها فِيما سَبَق.**

وأَمَّا الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَسَواءٌ كانَ لِدَفْعِ صائِلٍ عَن بِلادِ المُسْلِمينَ؛ أوْ كانَ غَزْواً لِبِلادِ الكُفّارِ؛ فَما كانَ مِنْهُ مُوافِقاً لأحْكامِ الشرْعِ فَقَدْ سَمّاهُ الشارِعُ جِهاداً فِي الحالَيْنِ؛ وإنْ سَماهُ الناسُ غَيْرَ ذلكَ، ومَا كانَ مِنْهُ مُخالِفاً للشَّرْعِ فَلَيْسَ مِن الجِهادِ فِي شَيءٍ، وإنْ زَعَمَ نِسْبَتَهُ إلَى الجِهادِ مَن زَعَمَ، ثُمَّ المُخالَفَةُ للشَّرْعِ فِي ذلكَ إمَّا أنْ تَكُونَ خَطَأً مِن الفاعِلِ بِتأوِيلٍ يَتَأوَّلُهُ مِن غَيْرِ تَعَمُّدٍ مِنْهُ كَما وَقَعَ لِخالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا قَتَلَ بَنِي جُذَيْمَةَ ثُمَّ وَدَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ قَتْلاهُمْ، وكَما وَقَعَ لَمّا رَأى امْرأةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغازِيهِ فَأنْكَرَ قَتْلَ النِّساءِ والصِّبْيانِ؛ وعِنْدَ النَّسائِيِّ وَغَيْرِهِ عَنِ الأَسْوَدِ بنِ سَرِيعٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ فَظَفِرْنَا بِالْمُشْرِكِينَ؛ فَأَسْرَعَ النَّاسُ فِي القَتْلِ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ!؛ فَبَلَغَ ذلكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوامٍ ذَهَبَ بِهِمُ القَتْلُ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ؟!؛ أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً؛ ثَلاَثاً. فَتأمَّلْ كَيْفَ وَقَعَ الخَطأَ مِن كَبِيرِ قادةِ الجَيْشِ خالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَوَقَعَ مِنْ عامَّةِ الجَيْشِ فِي الغَزْوَةِ المَذكُورَةِ ولَمْ يَكُنْ ذلكَ مُوجِباً لِنَزْعِ صِفَةِ الجِهادِ والمُجاهِدِينَ عَنْهُمْ، فَضْلاً عَن وَصْفِهِمْ بِما يَنْعَتُهُمْ بِهِ الكُفارُ والمُشْرِكُونَ مِن أنْواعِ النُّعُوتِ والألْقابِ!، وقَدْ كانَ كُفارُ قُرَيْشٍ يَنْعَتُونَ المُسْلِمِينَ بالصابِئِينَ!، وبأنَّهُمْ قَاطِعُوا الرَّحِمِ، و مُفَرِّقُوا الجَماعَةِ؛ يُفَرِّقُونَ بَينَ الرجُلِ وأبِيهِ؛ والأخِ وأخِيهِ، وأنَّهُمْ مُعْتَدُونَ لا يَرْعَونَ حُرْمَةً لِقُرْبَى ولا لِدَمٍ ولَو فِي الشَّهْرِ الحَرامِ!، واللهُ يَعْلَمُ فِي

ذلكَ كُلِّهِ مَنْ مِنَ الفَرِيقَيْنِ كافِرٌ بِهِ سُبْحانَهُ؛ صادٌّ عَن سَبِيلِهِ؛ وعَن بَيْتِهِ الحَرامِ؛ مُخْرِجٌ لأَهْلِهِ مِنْهُ؛ قاطِعٌ لِلرحَمِ؛ مُفَرِّقٌ لِجماعَةِ المُؤْمِنِينَ.

وكَما أنّ القِتالَ الحَقَّ الذِي أمَرَ بِهِ الشرْعُ عِبادَةٌ يُتَقَرَّبُ بِها إلَى اللهِ تعالَى، فَإنَّ القِتالَ الظُّلْمَ مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ حِينٍ، وقَدْ نَهَى عَنْهُ الشارِعُ أشَدَّ النَّهْيَ وسَمَّاهُ عُدْوَاناً؛ فَقالَ سُبْحانَهُ: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}**، وهذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي القِتالِ، وقِيلَ: غَيْرُها، وهِي إِذْنٌ لِدَفْعِ هُجُومِ العَدُوِّ، ثُمَّ نَزَلَتْ {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} مِن سُورَةِ بَراءَةَ فَنَسَخَتْها، والراجِحُ أنَّ الآيَةَ مُحْكَمَةٌ لا مَنْسُوخَةٌ؛ وهُو قَوْلُ ابنِ عباسٍ ومُجاهِدٍ وعُمَرَ بن عَبْدِ العَزِيزِ، وَالْمُرَادُ عَلَى هَذَا بِالذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ: الّذِينَ هُمْ مُتَهَيِّئُونَ لِقِتَالِكُمْ؛ أَيْ: لاَ تُقَاتِلُوا الشُّيُوخَ وَالنِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ، وحَكَى الزَّمَخْشَرِيُّ قَوْلاً آخَرَ: أَنَّ المُرَادَ بِهِمُ الكُفّارُ كُلُّهُمْ، فَإِنَّهُمْ بِصَدَدِ أَنْ يُقَاتِلُوا. انتهى.
وعَلَى القَولِ بالنَّسْخِ؛ فَإنَّ قَوْلَهُ: **{وَلاَ تَعْتَدُوا}**؛ مَعْناهُ : لاَ تَبْتَدِئُوا بِالقِتَالِ، وَقَوْلَهُ: **{إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}**: تَحْذِيرٌ مِنَ الاعْتِدَاءِ، قالَ ابنُ عاشُور: وَذَلكَ مُسَالَمَةٌ لِلْعَدُوِّ وَاسْتِبْقَاءٌ لَهُمْ وَإِمْهَالٌ حَتّى يِجِيئُوا مُؤْمِنِينَ. انتهى.
وعَلى قَوْلِ ابنِ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه: فالمَعْنَى: لاَ تَعْتَدُوا فِي القِتَالِ إِنْ قَاتَلْتُمْ، وَالاَعْتِدَاءُ عَلَى وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ تَرْجِعُ إِلَى تَجَاوُزِ أَحْكَامِ الْحَرْبِ، وَمَعْنَى الاعْتِدَاءِ: الابْتِدَاءُ بِالظُّلْمِ، وقَدْ قالَ تَعالَى فِي وَعِيدِ مَن اعْتَدَى فِي الدِّماءِ وتَجاوَزَ حُدُودَ ما شَرَع: **{ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.**

فَهَذا هُوَ قَوْلُ الشرْعِ وحُكْمُهُ، ولَيْسَ مِن شَأْنِ أهْلِ العِلْمِ مِن المُسْلِمِينَ مُجارَاةُ عَدُوِّ الدِّينِ فِيما يَصْطَنِعُهُ مِن الألفاظِ، خاصَّةً إذا كانَ إطْلاقُ اللفْظِ يَخْدِمُ أغْراضَهُ مِن العُدْوانِ علَى الشَّرْعِ وصَدِّ النّاسِ عَنْهُ وعَن أهْلِهِ وحَمَلَتِهِ، كَما يَصْنَعُونَ فِي البابِ الذِي نَحْنُ فِيه.

ولَوْ أنَّ رَجُلاً أرادَ أنْ يُسَمِّيَ الجِهادَ الذِي أمَرَ اللهُ تعالَى بِهِ (إرْهاباً)؛ أو أنْ يُسَمِّيَ المُجاهِدِينَ القائِمِينَ بِهَذهِ العِبادَةِ كَما أمَرَ بِها سُبْحانَهُ إرْهابِيِّينَ؛ لِقَولِهِ تعالَى: **{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}**؛ لكانَ المُتَعَيِّنُ نَهْيَهُ عَن ذلكَ؛ لما يُفْضِي إلَيْهِ مِن تَلبِيسِ الحَقِّ عَلَى الخَلْقِ، كما نَهَى اللهُ سُبْحانَهُ المُؤْمِنِينَ عَن تَقْلِيدِ اليَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ (رَاعِنَا) وأَمَرَهُمْ أنْ يَقُولُوا (انْظُرْنا)، ولأنَّ الواجِبَ تَسْمِيَةُ العِباداتِ بِما سَمَّاها اللهُ تَعالَى بِهِ، وإنْ كانَ إرْهابُ عَدُوِّ الدِّينِ مِن مَقاصِدِ الإعْدادِ والجِهادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

نَعَمْ؛ يَسْتَعْمِلُ هَذِهِ اللفْظَةَ المُفَسْرُونَ فِي مَواطِنَ بِمَعْنَى التَّرْهِيبِ الذِي هُو قَرِينُ التَّرْغِيبِ؛ كما نَقَلَ الألوسِيُّ قَوْلَ بَعْضِ العُلماءِ: إنَّ آياتِ الوَعِيدِ مُقَيَّدَةٌ بالمَشيئَةِ؛ لكِنَّها لَمْ تُذْكَرْ لِمَزِيدِ الإرْهابِ، وكما ذكَرَ أبو حيانٍ

فِي قَوْلِهِ تعالَى عنْ فِرْعَونَ :{فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ}؛ أَنَّهَ عَدَلَ إِلَى لَفْظِ الماضِي إشارَةً إِلَى تَحَقُّقِ الوُقُوعِ؛ ولِما فِي ذلكَ مِن الإرْهابِ والتَّخْوِيفِ.

نَعَمْ؛ واسْتَعْمَلَهُ الفُقَهاءُ فِي مَواضِعَ مِن فِقْهِ الجهاد:

مِنْها: لِباسُ الحَرِير؛ عَلَّلَهُ بَعْضُهُمْ بالإرْهابِ للعَدُو، حكاهُ فِي المُنْتَقَى شرحِ الموَطأِ عن ابنِ الماجِشُون؛ وذَكَرَهُ ابنُ العَرَبيِّ فِي أحْكامِ القُرْآنِ ورَدَّهُ، وَذَهَبَ الشَّوْكانِيُّ فِي السَّيْلِ الجَرَّارِ إِلَى المَنْعِ أيْضاً؛ وقَالَ: وَالحَاصِلُ أَنَّ التَّرْهِيبَ عَلَى العَدُوِّ هُوَ مَقْصَدٌ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ وَلِكِنَّهُ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِمَا عَرَّفْنَاكَ. يَعْنِي: من العُدَّةِ والسِّلاحِ؛ لأَنَّ لِباسَ الحَرِيرِ تَشَبُّهٌ بِرَبّاتِ الحِجالِ؛ وخُرُوجٌ عَن عَدِيدِ الرجال. انتهى. وحكاهُ ابنُ بَطّالٍ فِي شَرْحِ البُخارِي عَن المُهَلَّبِ؛ وأَنَّهُ أَلْحَقَ بِهِ تَحْلِيَةَ السُّيُوفِ وكُلَّ ما اسْتُعْمِلَ فِي الحَرْبِ، قالَ ابنُ تَيْمِيَةَ فِي شَرْحِ العُمْدَةِ: لأَنَّ المَقْصُودَ مِنَ السِّلاَحِ قِتَالُ العَدُوّ وَإِرْهَابُهُ فَجَازَ أَنْ يُحَلَّى بِمَا يُفِيدُ إِرْهَابَ العَدُوِّ.
قالَ كاتِبُهُ كانَ اللهُ لَه: لَيْسَ الأمْرُ كَما ذكَرَ المانِعُون، بلْ مَن ذَهَبَ إِلَى الجَوازِ أَرادَ أنَّ ارْتِداءَ ثِيابِ الحريرِ من قِبيلِ الخُيَلاءِ المَأْذُونِ بِهَا فِي الحَرْبِ، وأنَّ ذلكَ مَعَ الجَلادَةِ والقُوَّةِ يُشْعِرُ بِالغِنَى وكَثْرَةِ المالِ فِي المُسْلِمِينَ، وكَثْرَةُ المالِ مُرْهِبٌ للعَدُوِّ أيْضا، كما وَرَدَ أنَّ الصحابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قالُوا لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْه: إنا إذا لِقِينا الرومَ ورَأَيْناهُمْ يَلْبَسُونَ أَقْبِيَةَ الحَرِيرِ وجَدْنا لِذلكَ رَوْعَةً فِي نُفُوسِنا، فَقال: الْبَسُوهُ أَنْتُمْ كَما يَلْبَسُونَهُ هُم!.

ومِنها: مِشْيَةُ الخُيَلاءِ؛ ذكَرَهُ ابنُ بَطالٍ أيضاً؛ قَالَ: لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الإرْهَابِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ.
ومِنْها: تَعْلِيلُ القَوْلِ بِعَدَمِ الإسْهامِ للراحِلَةِ مِن الإبِلِ ذَكَراً كانَ أوْ أنْثَى؛ ولا للبَغْلِ؛ ولا للحِمارِ؛ بِعَدَمِ الإرْهابِ؛ لأنها لا تَصْلُحُ للكَرِّ والفَرّ، كذا فِي حاشِيَةِ رَدِّ المُحْتار (4/326)، وفِيهِ أيْضاً أنّهُ يُسْهَمُ لِلخَيْلِ الكَبِيرِ المَرِيضِ إنْ صَحَّ قَبْلَ القِسْمَةِ؛ لا للمُهْرِ؛ لِحَصُولِ الإرْهابِ بالأَوَّلِ دُونَ الثانِي، (4/324).
ومِنْها: مَن قالَ بالإسْهامِ للبَراذِينِ (وهِي الخُيُولُ الأَعْجَمِيَّةُ الكِبار) عَلَّلَ ذلكَ بِأَنَّ حُصُولَ الإرْهابِ بِها هُوَ السَّبَبُ، وذلكَ حاصِلٌ باسمِ الخَيْلِ؛ وهُوَ يَتناوَلُها؛ كما يَتَناوَلُ الهَجِينَ والمُقْرِفَ. كذا فِي تَبْيِينِ الحَقائقِ، وفِي العِنايَةِ مِن كُتُبِ الحَنَفِيَّةِ: لأَنَّ الإرْهَابَ مُضَافٌ إِلَى جِنْسِ الْخَيْلِ. انتهى.
ومِنْها: أنَّ الرِّدْءَ يُشارِكُ المُباشِرَ فِي الغَنِيمَةِ، قَالَ فِي تَبْيِينِ الحَقائقِ: لِحُصُولِ الإرْهابِ بالكُلِّ.
ومِنْها: قَوْلُ الحَنَفِيَّةِ فِيمَنْ جَاوَزَ الدَّرْبَ (أيْ: حُدُودَ دارِ الحَرْبِ) فَارِسًا فَهَلَكَ فَرَسُهُ؛ فَشَهِدَ الْوَقْعَةَ رَاجِلاً فَلَهُ سَهْمُ فَارِسٍ، خِلَافاً للأَئِمَّةِ الثَّلاثَةِ الذِينَ اعْتَبَرُوا كَوْنَهُ فَارِسًا؛ أَوْ رَاجِلاً حَالَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ، وعَلَّلَ الحَنَفِيةُ ما ذَهَبُوا إِلَيْهِ بِأَنَّ الْمُجَاوَزَةَ أَقْوَى الْجِهَادِ؛ لأَنَّ الإِرْهَابَ بِهَا يَلْحَقُ العَدُوَّ. كذا فِي مَجْمَعِ الأَنْهُر من كُتُبِ الحَنَفِيَّةِ.
ومِنْها: أَنَّ المُجاهِدَ يَسْتَحِقُّ مِن مالِ الزَّكاةِ ولَوْ كانَ غَنِيّاً مُقِيماً فِي بَلَدِهِ، قَالَ الخَرَشِيُّ فِي شَرْحِ مُخْتَصَرِ خَلِيلٍ: لأَنَّ الْقَصْدَ مِنْهُ الإرْهَابُ، وقالَ فِي مَوْضِعٍ آخَر: وَبِدَفْعِ الزَّكَاةِ لَهُ يَتَقَوَّي بَأْسُهُ فَيَحْصُلُ لِلْعَدُوِّ إِرْهَابٌ. انتهى.

ومِنْها: ما لَوْ أوْصَى قَبْلَ المَوْتِ بِطُبُولِ الحَرْبِ؛ قالَ النَّوَوِيُّ فِي المَجْمَوعِ: كَقَوْلِهِ: أعْطُوهُ طَبْلاً للجِهَادِ أوِ الإرْهَابِ (يَعْنِي: إخافَةَ العَدُوّ) فَلاَ يُعْطَى إلاَّ طَبْلَ الْحَرْبِ. انتَهى، ونَحْوُهُ فِي الحاوِي للماوَرْدِي (8/ 636).
ومِنْها: الفَرَسُ المَغْصُوبُ إذَا حَضَرَ بِهِ الْحَرْبَ اسْتَحَقَّ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ؛ وفِي المَجْمَوعِ للنَّوَوِيِّ: لأنَّهُ حَصَلَ بِهِ الإرْهَابُ. انتهى، قالَ فِي الحاوِي: وَلَيْسَ ذَلِكَ مَعْصِيَةً وَإنْ كَانَ الْغَصْبُ مَعْصِيَةً. انتهى. وَفِي مُسْتَحِقِّهِ وَجْهَانِ: أحَدُهُمَا: أنَّهُ لَهُ، وَالثَّانِي: أنَّهُ لِصَاحِبِ الفَرَسِ.
ومِنْها: الصُّفُوفُ عِنْدَ القِتالِ وتَرْتِيبُها وتَعْبِئَتُها؛ وتَقْدِيمُ الشُّجْعانِ الأكْفاءِ عَلَيها، قالَ ابنُ قُدامَةَ: لأنَّ ذَلِكَ أحْوَطُ لِلْحَرْبِ وَأبْلَغُ فِي إرْهَابِ العَدُوّ.
ومِنْها: أنَّ الفارِسَ يَسْتَحِقُّ الزِّيادَةَ بِالإرْهابِ لا بِالقَتْلِ، ذَكَرَهُ فِي تَبْيِينِ الحَقائِقِ مِن كُتُبِ الحَنَفِيَّةِ؛ وقال: فُعِلَمَ أنَّ الإرْهابَ والإرْعابَ أشَدُّ عَلَيْهِمْ مِن الْقَتْلِ؛ وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **{تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}**؛ وَبِقَوْلِهِ **{ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ}**؛ وَبِهِ تَنْكَسِرُ هِمَّتُهُمْ وَيَنْكَسِرُونَ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ أوْلَى بِالاعْتِبَارِ لِحُصُولِ الْمَقْصُودِ عِنْدَهَا وَهُوَ الشَّرْطُ.

واستَعْمَلَ ابنُ تَيْمِيةَ رَحِمَهُ اللهُ هَذا اللفْظَ فِي مَعْنَى الإخافَةِ ظُلْماً؛ فَقَالَ: وَأمَّا اسْتِجْلاَلُ الْقَتْلِ بِاسْمِ الإرْهَابِ الَّذِي يُسَمِّيهِ وُلاةُ الظُّلْمِ سِيَاسَةً وَهَيْبَةً وَأبَّهَةَ الْمُلْكِ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَظَاهِرٌ أيْضًا... . انْتَهَى.

فَهَذِهِ المَواطِنُ التِي اسْتَعْمَلَ فِيها الأَئِمَّةُ هَذا اللفْظَ هِيَ مِمّا شَرَعَهُ اللهُ تَعالَى، أمّا بالمَعْنَى الذِي ذَمَّهُ الشرْعُ فَذَلكَ أَلْيَقُ بِمَنْ يَتَّهِمُ بِهِ الإسْلامَ مِن الأمَمِ الكافِرَةِ التِي لا تَعْرِفُ حَقّاً لأَحَدٍ إلاّ بِشَرِيعَةِ وحُوشِ الغابِ التِي تَتَسلطُ علَى الخَلْقِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلا هِيَ تَلْتَزِمُ بِدِينٍ ولا تَعْتَرِفُ بِخُلُقٍ!.

ثُمَّ إنَّ بَعْضَ مَنْ كَتَبَ حَولَ البابِ مِن المُعاصِرِينَ!؛ أَرادَ أَنْ يَتَمَحَّلَ للقَوْلِ بِأنَّ قَوْلَ اللهِ تَعالَى فِي آيَةِ الأنْفالِ: **{تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ}** إنَّما هُوَ لإخافَةِ العَدُوِّ مِن الطَّمَعِ فِي دارِ الإسْلامِ؛ وزَعَمَ أنَّ سِياقَ الآياتِ يَدُلُّ عَلَى هَذا، وقَوْلُهُ هَذَا رُبَّما أوْهَمَ مَن لاَ عِلْمَ عِنْدَهُ أنَّ الإعْدادَ لإرْهابِ العَدُوِّ فِي عُقْرِ دارِهِ تَمْهِيداً لغَزْوِهِ وإخْضاعِهِ لِشَرِيعَةِ الإسلامِ لَيْسَ مَقْصُوداً فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ، **وهَذا غَيْرُ صَحِيحٍ،** فَإنَّ إرْهابَ العَدُوِّ وإنْ كانَ يُقْصَدُ بِهِ مَنْعُهُ مِن الإغارَةِ علَى دارِ الإسْلامِ كما ذكَرُوه، إلاَّ أنَّهُ يُقْصَدُ بِهِ مَا ذَكَرْناهُ أيْضاً، وإلاَّ فَماذا كانَتْ مَغازِي النَّبِيِّ صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ علَيْهِ وسَراياهُ؟!، وماذَا كانَتْ فُتُوحُ أصْحابِهِ مِن بَعْدِهِ؛ وغَزْوُهُمْ بِلادَ الفُرْسِ والرومِ والهِنْدِ ومِصْرَ وغَيْرِها؟!.

بَلْ وفِي سِياقِ الآياتِ ما يَنْقُضُ ما ذَكَرُوهُ؛ فَإنَّهُ لَما بَيَّنَ مَا يُرْهَبُ بِهِ العَدَوُّ مِنَ القُوَّةِ وَالاسْتِظْهَارِ، بَيَّنَ بَعْدَهُ أنَّهُمْ عِنْدَ الإرْهَابِ - إذَا جَنَحُوا؛ أيْ: مَالُوا إلَى الصُّلْحِ - فَالْحُكْمُ قُبُولُ الصُّلْحِ، وقَدْ قِيلَ: إنَّ المُرادَ المُشْرِكُونَ؛ وعَلَيهِ فَقَدْ نُسِخَتْ بِآيَةِ السيْفِ، فَلا يُقْبَلُ مَنْهُمْ إلاَّ الإسْلامُ أو القِتال، وقِيلَ: المرادُ: أهْلُ الكِتاب، نَزَلَتْ فِي حَرْبِهِمْ إذَا بَذَلُوا الجِزْيَةَ

وقَامُوا بِشَرْطِ الذِّمَّةِ، هَذا مَجْموعُ ما ذكَرَهُ الفَخْرُ الرازِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وغَيْرُهُ، **فباللهِ عَلَيكَ؛** أفَتَرَى العَدُوَّ مَتَى عَلَمَ أنَّ المُسْلِمِينَ لا يَقْصِدُونَهُ؛ وإنَّما يُعِدُّونَ العُدَّةَ لِتَخْوِيفِهِ من العُدْوانِ عَلَى دِيارِهِمْ فَحَسْبُ!؛ أفَتَراهُ يَطْلُبُ صُلْحاً أوْ يُبادِرُ إلَيْهِ؟!، وقَدْ أحْسَنَ الألُوسِيُّ إذْ قال: أيْ أعِدُّوا لِقِتَالِ الذِينَ نُبِذَ إلَيهِمُ العَهْدُ وَهَيِّئُوا لِحِرَابِهِمْ؛ كَمَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ، **أوْ لِقِتَالِ الكُفَّارِ عَلَى الإطْلاَقِ؛ وَهُوَ الأوْلَى كَمَا يَقْتَضِيهِ مَا بَعْدَهُ. انْتَهى، وذكَرَهُ البَيْضاوِيُّ دَونَ الإشارَةِ إلَى الأولَى. انْتَهى.**

ويَرُدُّهُ أَيْضاً عُمُومُ قَوْلِهِ تَعالَى: **{عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ}؛** قَالَ ابنُ جَرِير: كُلُّ عَدُوٍّ للهِ وَللمُؤْمِنِينَ يَعْلَمُونَهَمْ، وذَكَرَ هُو والبَغَوِيُّ وغَيْرُهُمْ عَن جَماعَةٍ من التابِعِينَ وغَيْرِهِم أنَّ مِنْهُمْ فارِسَ وقُرَيْظَةَ، وقِيلَ: الرومُ، وقِيلَ: اليَهُود، كما فِي زادِ المَسيرِ وفَتْحِ القَدِير، وذكَرَ الماوَرْدِيُّ أنَّ المُرادَ عَدُوُّ اللهِ بالكُفْرِ وعَدُوُّكُمْ بالمُبايَنَةِ، أو أنَّ عَدُوَّ اللهِ عَدُوٌّ لأوْلِيائِهِ، وكُلُّ مَن لَمْ يَخْضَعْ لِسُلْطَانِ الإسْلامِ بالدُّخُولِ فِيهِ؛ أو إعْطاءِ الجِزْيَةِ عَن يَدٍ وهُو صاغِرٌ فَهُو داخِلٌ فِي العُمُومِ المَذْكُورِ.

وقِي قَوْلِهِ تعَالَى: {مِن رِباطِ الخَيْلِ}؛ دَلِيلٌ علَى أنَّ المُرادَ الغَزْوُ لاَ الدَّفْعُ فَحَسْبُ؛ لأنَّها أكْثَرُ ما تَسْتَعْمَلُ فِيهِ، ولِذا قالَ البَغَوِيُّ: يَعْنِي: رَبْطَهَا وَاقْتِنَاءَهَا لِلغَزْوِ. انتهى.
ومِن الفَوائِدِ فِي هَذا المَقام قَوْلُ السعْدِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي التَّفْسير: {وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ }: وَهَذِهِ العِلَّةُ مَوْجُودَةٌ فِيهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ وَهِيَ إِرْهَابُ الأَعْدَاءِ، وَالحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ، فَإِذَا كَانَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ أَكْثَرَ إِرْهَاباً مِنْهَا - كَالسَّيَّارَاتِ البَرِّيَّةِ وَالهَوَائِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لِلْقِتَالِ الَّتِي تَكُونُ النِّكَايَةُ فِيهَا أَشَدَّ - كَانَتْ مَأْمُوراً بالاسْتِعْدَادِ بِهَا؛ وَالسَّعْيِ لِتَحْصِيلِهَا، حَتَّى إِنَّها إِذَا لَمْ تُوْجَدْ إِلاَّ بِتَعلُّمِ الصِّنَاعَةِ؛ وَجَبَ ذَلِكَ، لأن مـا لاَ يَتِـمُّ الوَاجِبُ إِلاَّ بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. انْتَهى.

ويَرُدُّ هَذَا أَيْضاً أَنَّ سُورَةَ الأَنْفالِ نَزَلَتْ بَعْدَ بَدْرٍ، وكانتْ بَدْرٌ غَزْوَةً غَزاها رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ، وأَوَّلُ أمْرِهَا الخُرُوجَ للقاءِ عِيرِ أبِي سُفْيانَ.

وَكَذلكَ قَوْلُهُ تَعالَى بَعْدَهَا: **{حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتالِ}؛** والأَمْرُ عامٌّ والتَّعْرِيفُ فِي القِتالِ للعَهْدِ؛ وهُو قِتالُ أعْداءِ الدِّينِ، ثُمَّ لما كانَ الأَمْرُ عامّا فِي المُقاتِلِينَ (بِفَتْحِ التاءِ)؛ وفِي المُؤْمِنِينَ قِلَّةٌ وفِي العَدُوِّ كَثْرَةٌ ناسَبَ أنْ يُبَيِّنَ الحُكْمَ فِي ذلكَ، وما يَحْتاجُونَهُ من الصَّبْرِ والثَّباتِ؛ وأنَّ القِلَّةَ مَعَ اليَقِينِ والإيمانِ باللهِ كَثِيرَةٌ؛ حَتَّى لاَ يَكُونَ ذلكَ مُقْعِداً لَهُمْ عَنِ الغَزْوِ الذِي أُمِرُوا بِهِ.

وأَيْضاً فَفِي السياقِ بَعْدَ التَّحْرِيضِ ذِكْرُ الأسْرَى والإثْخانِ فِي الأرْضِ، وأَخْذُ الأَسْرَى مِن شَأنِ القَوِيِّ الغالِبِ، وكُلُّ ذلكَ إنَّما يَقَعُ فِي الغَزْوِ أصْلاً، وَالْمَعْنَى المَقْصُودُ مِن الإثْخانِ فِي الأَرْضِ – كما قَالَ ابنُ عاشور - أَنَّ النَّبِيَّ إِذَا قَاتَلَ فَقِتَالُهُ مُتَمَحِّضٌ لِغَايَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ نَصْرُ الدِّينِ وَدَفْعُ عَدَائِهِ،

وَلَيْسَ قِتَالُهُ لِلْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ؛ فَإذَا كَانَ أَتْبَاعُ الدِّينِ فِي قِلَّةٍ كَانَ قَتْلُ الأَسْـرَى تَقْلِيـلاً لِعَدَدِ أَعْدَاءِ الدِّينِ؛ حَتَّى إِذَا انْتَشَرَ الدِّينُ وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ صَلُحَ الفِدَاءُ لِنَفْعِ أَتْبَاعِهِ بِالمَالِ. انْتَهى.

ما بَالُ القَوْمِ؛ أفَلاَ يَعْقِلُونَ!، وهَلاَّ اعْتَبَرُوا بِما يَرَوْنَهُ اليَوْمَ مِن حالِ الأُمَمِ المُسْتَضْعَفَةِ مَعَ ما يُسَمَّى بالدُّوَلِ العُظْمَى والكُبْرَى التِي ما فَتِئَتْ تَقُومُ علَى الطُّغْيانِ والجَبَرُوتِ والعُتُوِّ فِي الأَرْضِ؛ فَهَلْ رَأَوْا فِي هَذَهِ الدُّوَلِ مَنْ يَجْنَحُ إِلَى مُصالَحَةِ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ المَغْلُوبَةِ عَلَى أَمْرِها ولا حَوْلَ لَها ولا طَوْلَ ولا قُوةً، أَمْ أنَّ الواقِعَ هُوَ عَكْسُ هَذا، أنْ يَسْعَى الضَّعِيفُ إِلَى اسْتِرْضاءِ القَوِيِّ ومُصانَعَتِهِ، وأنْ يَجْنَحَ إِلَى مُسالَمَتِهِ، لا لأَنَّهُ يَرَى القَوِيَّ يَلْزَمُ حُدُودَهُ ولا يَتَجاوَزُها!؛ ولأَنَّهُ يُعِدُّ العُدَّةَ لَيَمْنَعَ الآخَرِينَ مِن العُدْوانِ علَيْهِ فَحَسْبُ!؛ بَلْ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أنَّ تِلكَ الأُمَمَ تَغْزُوا مَن شاءَتْ وَمَتَى شاءَتْ، كَما يَرَى ذلكَ كُلُّ ذِي عِيْنَيْنِ، فَلْيَفْتَرِضُوا أُمَّةَ الإِسْلامِ فِي مَكانَةِ تِلْكَ الدُّولِ إِذَنْ، وذلكَ هُوَ المَطْلُوبُ مِنْها؛ مَعَ مَا أُمِرَتْ بِهِ مِنْ إِيْصالِ الهُدَى والخَيْرِ للنَاسِ، وإقامَةِ شَرْعِ اللهِ فِيهِمْ سُبْحانَهُ.
قالَ ابنُ عَطِيَّةَ فِي المُحَرَّرِ الوَجِيزِ: وَالأَوْلَى أَنْ يُتَأَوَّلَ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا ظَهَرُوا وَعَزُّوا هَابَهُمْ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنَ العَدُوِّ الْمُحَارِبِ لَهُمْ، فَإِذَا اتَّصَلَتْ حَالُهُمْ تِلْكَ بِمَنْ بَعُدَ مِنَ الكُفَّارِ دَاخَلَتْهُ الْهَيْبَةُ؛ وَإِنْ لَـمْ يَقْصِدِ المسْلِمُونَ إِرْهَابَهُـمْ؛ فَأُولِئِكَ هُمُ الآخَرُونَ. انْتَهى، يَعْنِي فِي قَوْلِهِ تعالَى: {وآخَرِينَ مِن دُونِهِم}.

وقَائِلُ هَذا؛ إِمّا أَنَّهُ غَفِلَ عَمَّا ذَكَرْناهُ، وإِمّا أَنَّهُ أَرادَ التَّخْفِيفَ مِن وَطَأَةِ التُّهَمَةِ التِي تَجْعَلُ الإِسْلامَ رَدِيفاً للإِرْهابِ؛ فَزَعَمَ ما زَعَمَ، وأَساءَ للإِسْلامِ مِنْ حَيْثُ أَرادَ أنْ يُحْسِنَ!، كما أَنَّهُ جَهِلَ أو تَجاهَلَ رِسالَةَ الجِهادِ فِي الإِسْلامِ والغَايَةَ مِنْها، وأَنَّها إِخْضاعُ الخَلِيقَةِ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، لا بِمَعْنَى الإِكْراهِ عَلَى الدِّينِ فإِنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنْهُ، بَلْ مِنْ قَبِيلِ ما نَراهُ اليَوْمَ مِن إِخْضاعِ الدُّوَلِ للأَحْزابِ المُعارِضَةِ لَها ولِقَوانِينِها؛ وإِنْ كانَتْ تِلْكَ الأَحْزابُ مُخالِفَةً لِسِياسَةِ الدَّوْلَةِ أو لِشَيءٍ مِنها.

ولَوْ أَنَّ أَصْحابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ فَهِمُوا مِن رِسَالَةِ الجِهادِ فِي الإِسْلامِ – ومَن لَوازِمِها الإِعْدادُ الذِي يُرْهِبُونَ بِهِ العَدُوَّ – **ما يُوهِمُهُ** هَؤلاءِ لَما فَتَحُوا شَاماً ولا عِراقاً ولا مِصْراً!؛ ولاكْتَفَوا بالقُعُودِ فِي دِيارِهِمْ واسْتِعْراضِ ما جَمَعُوهُ مِن العُدَّةِ والعَتادِ فِي الثُّغُورِ لإِخافَةِ الأَعْداءِ مِن العُدْوانِ علَيْها, كما ادَّعاهُ بَعْضُهُم.

ثُمَّ أَيْنَ قَولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلمَ: {أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ الله}؛ وقَوْلُهُ: {بُعْثْتُ بالسَّيْفِ بَيْنَ يَدِي الساعِةِ}؛ وقَولُهُ: { جِئْتُكُمْ بالذَّبْحِ}؛ وقَوْلُهُ: {مَنْ ماتَ ولَمْ يَغْزُوا ولَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بالغَزْوِ ماتَ عَلى شُعْبَةٍ مِن النِّفاقِ}؛ وقَوْلُهُ: {لاَ يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِماً يُقَاتِلُ عَلَيهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ الساعَةُ}، وَقَوْلِهُ: {يَظْهَرُ هَذَا الدِّينُ حَتَّى يُجَاوِزَ البِحَارَ؛ وَحتَّى تُخَاضَ بِالخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ}؛ وقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ سلَمَةَ بنِ نُفَيْلٍ: {يَا رَسُولَ اللهِ أَذَالَ النّاسُ الخَيْلَ؛ وَوَضَعُوا السِّلاَحَ؛

وَقَالُوا: لاَ جِهَادَ؛ قَدْ وَضَعَتِ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا – يَعْنِي: أنَّ الناسَ قَدْ أَمِنُوا عَدُوَّهُمْ فَلا حاجَةَ إلَى الغَزْو- فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وَسَلَّمَ بِوَجْهِهِ وَقَالَ: كَذَبُوا الآنَ!؛ الآنَ جَاءَ القتالُ!... الحدِيثَ}، **وإنَّما أَرادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ بِذلكَ ما يَكُونُ مَن الفُتُوحِ مِن بَعْدِهِ، فَأَنْكَرَ عَلَى مَن أَهانَ الخَيْلَ وأَهْمَلَ شَأنَها، لأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبابِ القُوَّةِ التِي يُرْهَبُ بِها عَدُوُّ الإسْلامِ، فالواجِبُ صِيانَتُها وإكْرامُها والإكْثارُ مِنْها، والعِنايَةُ بِها وبِتَدْرِيبِ الفُرْسانِ عَلَيْها، لِما تُكْسِبُهُ مِن القُوَّةِ والشجاعَةِ؛ ولأَنَّها تُعِينُ علَى الكَرِّ والفَرِّ الذَيْنِ يُحْتاجُ إلَيْهِما فِي الغَزْوِ وَالقِتالِ.**

وفِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ: (كَذَبُوا؛ الآنَ؛ الآنَ جاءَ القِتالُ) رَدٌّ واضِحٌ جَلِيٌّ عَلَى مَن قَصَرَ المُرادَ بإرْهابِ العَدُوِّ فِي الآيَةِ عَلَى مَنْعِهِ مِن العُدْوانِ عَلَى دارِ الإسْلامِ، بَلْ لَو قالَ قائِلٌ إنَّ الأَصْلَ فِي الجِهادِ هُوَ الغَزْوُ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ فِي الحَدِيثِ: {الآنَ جاءَ الجِهادُ!} لكانَ مُصِيباً؛ والأَدِلَّةُ علَى هَذا كَثِيرَةٌ جِدّاً، وقَدْ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ: ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ!، وَذَكَرَ المُحقِّقِونَ مِن العُلَماءِ أنَّ هَذِهِ الخاصِّيَّةَ لَهُ ولأُمَّتِهِ مِن بَعْدِهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وفِي التارِيخِ الإسْلامِيِّ كَثِيرٌ مِن الحَوادِثِ التِي تَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا، وفِي هَذَا مَن الحِكَمِ البالِغَةِ أَنَّ العَدُوَّ إذا أَوْقَعَ اللهُ تعالَى فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ بِمَسِيرَةِ المُسْلِمِينَ إلَيْهِ وقَصْدِهِ فِي دِيارِهِ كانَ ذلكَ مِن أَسْبابِ ضَعْفِهِ واضْطِرابِهِ، فاضْطرّهُ هَذا إلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الإسْلامِ مَتَى عَرَفَ مَحاسِنَهِ؛ وكانَ لَهُ ما لِلْمُسْلِمِينَ وعلَيْهِ ما علَيْهِم، أو الخُضُوعِ لسُلْطانِهِ وأَحْكامِهِ بِأداءِ الجِزْيَةِ عَنْ يَدٍ وهُمْ صاغِرُونَ، ومَن امْتَنَعَ عَن ذلكَ مِنْهُمْ وأَبَى إلاَّ الحَرْبَ مَعَ هَذا كانَ ذلكَ دَلِيلاً علَى ما يُضْمِرُهُ مِن الصَّدِّ عَن دِينِ الإسْلامِ والعُدْوانِ علَيْهِ، لأَنَّهُ بِذلكَ يَحُولُ بَينَ الناسِ ورِسالَةِ الإسْلامِ، ثُمَّ إنَّهُ مَتَى قَوِيَتْ شَوْكَتُهُ واسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ لَمْ يَأْمَنِ المُسْلِمُونَ فِي دارِ الإسْلامِ عُدْوانَهُ وخَطَرَهُ، كَما يَعْرِفُهُ مَن نَظَرَ فِي أَحْوالِ الأَمَمِ والشُّعُوبِ وقَرَأَ تَوَارِيخَهَا.

ولَيْسَ ما آلَ إلَيْهِ حالُ المُسْلِمِينَ مِن الرُّجُوعِ عَن المَقامِ الذِي اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعالَى بِهِ مِن بَيْنِ الأَمَمِ مُبِيحاً للسُّكُوتِ عَن بَيَانِ ما أَمَرَ اللهُ تعالَى بِهِ للناسِ، ومِن ذلكَ الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومِنْهُ جِهادُ الطَّلَبِ؛ وما يَلْزَمُ فِيهِ مِن أَسْبابِ القُوَّةِ التِي تَأْخُذُ علَى أَيْدِي الأَمَمِ الخارِجَةِ عَن شَرائِعِهِ أَخْذَ السلْطانِ العادِلِ علَى أَيْدِي الجُناةِ والعُصاةِ، وفِي ذلكَ مَصْلَحَةٌ للجانِي وللأُمَّةِ مَعاً، وكَمْ كانَ أَخْذُ سَلاطِينِ العَدْلِ عَلَى أَيْدِي الجُناةِ رَحْمَةً بَكَثِيرٍ مِنْهُم، وكَفّا لَهُمْ عَما يُلْحِقُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وبِالجَماعَةِ مِن الضَّرَرِ، وهَذَهِ هِيَ غايَةُ الجِهادِ فِي الإسْلامِ كَما بَيَّنّا ذلكَ مُفَصَّلاً فِي الرسالَةِ الرابِعَةِ من رَسائلِ الثُّغُورِ: فَلْسَفَةِ الجِهادِ فِي الإسْلام.

ولَعَمْرُ اللهِ إنَّ الجِهادَ - ومَنْهُ غَزْوُ الكُفارِ فِي عُقْرِ دِيارِهِمْ **– لَمِنْ مَحاسِنِ الإسلامِ، ومَن ادَّعَى غَيْرَ ذلكَ فَقَدْ أَعْظَمَ الفِرْيَةَ عَلَى الشَّرْعِ والدِّينَ، والناسُ مِن طَبْعِها حُبُّ القَوِيِّ وتَعْظِيمُهُ، فَكَيْفَ**

إذا كانَ القَوِيُّ قائِما بالعَدْلِ الذِي أَمَرَ اللهُ تعالَى بِهِ؛ ولَيْسَ الإِسْلامُ إلاَّ ذلكَ، فَهَذا الذِي يَأْوِي إلَى كَنَفِهِ المُسْتَضْعَفُونَ، ويَنْتِفِعُ بِسُلْطانِهِ الخَلْقُ أَجْمَعُونَ، وتَأَمَّلْ قَولَ اللهِ تعالَى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً}؛ كَيْفَ جَعَلَ الفَتْحَ الذِي مِن أَسْبابِهِ الإِعْدادُ والقُوَّةُ والجِهادُ سَبَباً لإِقْبالِ الناسِ علَى دِينِ الإِسْلامِ، وهَكَذا وَقَعَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ المُبِينِ!؛ دَخَلَ أَهْلُ مَكَةَ وزُعَماءُ قُرَيْشٍ فِي دِينِ الإِسْلامِ أَمَما، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثِ القَبائِلُ أَنْ تَبِعَتْها فِي عامِ الوُفُودِ وهوَ العامُ التاسِعُ مِن الهِجْرَةِ، فَلَمَّا كانَ العامُ الذِي تُوُفِّيَ فِيه رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ كانَتْ الجَزِيرَةُ العَرَبِيَّةُ كُلُّها قَدْ خَضَعَتْ لِدِينِ الإِسلامِ، وأَوْصَى النَبِيُّ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ بإِخْراجِ اليَهُودِ والنَّصارَى مِنْها، وأَنْ لا يَبْقَى فِيها دِينانِ، لأَنَّها قاعِدَةُ مُلْكِ الإِسلامِ، ويُحْتاطُ فِي الأَصْلِ ما لا يُحْتاطُ فِي الفَرْعِ، ولأَنَّ فِيها مَكَّةَ وبَيْتَ اللهِ الحَرامِ؛ ولأَنَّ فِيها دارَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ علَى صاحِبِها صَلَواتُ اللهُ وسلامُهُ، وهُما مِن الأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ القَلْبِ مِن الجَسدِ لا حَياةَ لَها بِدُونِهِما، فَأَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهُما ومِنْ حَولِهِما كُلُّ ما يُمْكِنُ أَنْ يُضارَّهُما مِن الكُفارِ والمُشْرِكِينَ، واسْتَتوجَبَ ذلكَ إِخْراجَهُمْ مِن جَزِيرَةِ العَرَبِ كافَّةً؛ لأَنَّ مَنْ حامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ كَما قالَ لِي شَيْخُنا أَبُو مُحَمَّدٍ الراشِدِيُّ السِّنْدِيُّ فِي دارِهِ لَما رَحَلْتُ إِلَيْهِ هُناكَ رَحِمَهُ اللهُ، وعَمِلَ بِالوَصِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْه، وحَمَلَ أَصْحابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّمَ لِواءَ الجِهادِ مِن بَعْدِهِ، فَأَتَمَّ اللهُ بِشارَتَهُ لِنَبِيِّهِ، وخَضَعَ لِدِينِ الإِسلامِ أُمَمُ الفُرْسِ والرُّومِ فِي نَحْوِ أَرْبَعِ سِنِينَ بَعْدَ وَفاتِهِ!، ودَخَلَ مَن شاءَ اللهُ تَعالَى مِنْهُمْ فِي دِينِ الإِسلامِ، ولا يَزَالُ أَهْلُ تِلْكَ البِلادِ علَى دِينِ الإِسلامِ إِلَى يَوْمِنا هَذا؛ ولِلهِ الحَمْدُ سُبْحانَه.

فَتَأَمَّلْ وقارِنْ بَيْنَ مَن دَخَلَ دِينَ الإِسْلامِ مِن أَوَّلِ البِعْثَةِ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ؛ وهِي نَحْوُ واحِدٍ وعِشرِينَ عاماً، وبَيْنَ مَنْ دَخَلَهُ مِن الفَتْحِ إِلَى نَحْوِ سَبْعِ سِنِينَ بَعْدَهَا؛ وفِيها فَتْحُ بِلادِ الفرْسِ والرومِ!؛ يَظْهَرْ لَكَ بالبُرْهانِ العَمَلِيِّ صِحَّةُ مَا ذَكَرْناهُ وقَرَّرْناه.

لكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعلمَ أنّ الواجِبَ علَى العُلَمَاءِ وَطُلاَّبِ العِلْمِ وَالدَّعَاةِ إِلَى اللهِ تَجَنُّبُ هَذِهِ الأَلْفَاظِ وَنَبْذُهَا، وَتَحْذِيرُ النَّاسِ مِنْهَا, وَتَنْفِيرُهُمْ عَن سَمَاعِهَا, وكَيْفَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُجارِيَ أَعْداءَ الدِّينِ فِي اسْتِعْمالِها وهُمْ يَسْتَخْدِمُونَها فِي العُدْوانِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ؛ ويُصَوِّرُونَهُ للناسِ ظالِماً سَفَّاكاً للدِّماءِ؛ لا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ بالخَلْقِ، ويَزْعُمُونَ أَنَّ القُرْآنَ يَدْعُو إِلَى ذلكَ ويُحَرِّضُ علَيهِ!؛ **{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ** كَذِباً}.

وكَمْ مِنَ الأَلْفاظِ التِي يُرادُ التَّرْوِيجُ لَها بَيْنَ المُسْلِمِينَ وهِي وَسِيلَةٌ لإِشاعَةِ الكُفْرِ باللهِ تعالَى والعُدْوانِ علَى دِينِ الإِسلامِ والمُحادَّةِ للهِ ورَسُولِهِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ علَيْهِ؛ كَهَذِهِ الأَلْفاظِ المُشارِ إِلَيْها، فَإِنَّ مَن اعْتَقَدَ صِحَّةَ ما يَنْسِبُهُ هَؤلاءِ الكُفارُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّمَ مِن المَعانِي التِي يُرِيدُونَها كَفَرَ بِدِينِ الإِسْلامِ، وقَدْ أَخْبَرْناكَ أَنَّ الأَلْفاظَ المَذكُورَةَ وسِيلَةٌ إِلَى تَرْوِيجِ هَذِهِ المَعانِي بَيْنَ المُسْلِمِينَ؛ فَحَرُمَ اسْتِعْمالُها مِن هَذا الوَجْهِ أَيْضاً، كَما أَنّ الواجِبَ أَنْ تُسْتَبْدَلَ

بِالأَلْفَاظِ وَالأَسْمَاءِ التِي سَمّاها اللهُ تَعالَى بِها ونبيُّه ﷺ, وَأَنَّ عَلَى العُلَماءِ إشاعتَها وَنَشْرَهَا حَتَّى تَأْلَفَهَا القُلُوبُ وتُرَوَّضَ عَلَيهَا الأَلْسِنَةُ.

ثُمَّ إِنَّ أُمَمَ الغَرْبِ وإن اتَّفَقَتْ علَى جَعْلِ لَفْظِ الإرْهابِ رَدِيفاً للإِسْلامِ، لكِنَّها لا تَزالُ ولَنْ تَزالَ مُخْتَلِفَةً فِي تَعْرِيفِ هَذا اللفظِ وتَحْدِيدِ مَعْناهُ، فَتَعَيَّنَ مَعَ هَذا كُلِّهِ العُدُولُ إلَى أَلْفاظِ الشارِعِ وفِيها غُنْيَةٌ وكِفَايَةٌ ولِلهِ الحَمْدِ، كَما أَنَّ فِيها التَّطابُقَ بَيْنَ اللفْظِ والمَعْنَى فِي جَلاءٍ لا لَبْسَ فِيهِ ولا غُمُوض، وأَيْنَ هَذا اللفْظُ مِنْ أَلْفاظِ الجِهادِ؛ والقِتالِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ ودَفْعِ الصائلِ؛ وأحكامِ البُغاةِ؛ وأَحْكامِ الحَرابَةِ؛ وأَحْكامِ الخَوارِجِ؛ وأَحْكامِ المُرْتَدِّينَ، وغَيْرِ ذلكَ مِما لا نِزاعَ فِي مَدْلُولِهِ بَيْنَ الأَئِمَّةِ رَحْمَهُمُ الله، ومِن وَراءِ هَذا كُلِّهِ فَفِي اسْتِعْمالِ أَلْفاظِ الشرْعِ عِصْمَةٌ مِنَ الوُقُوعِ فِي التَّبَعِيَّةِ للأُمَمِ الكافِرِةِ، وحِفاظٌ علَى واحِدٍ مِن أَهَمِّ عَوامِلِ الثَّباتِ والبَقاءِ.

واعْلَمْ أنّ تبديلَ الأَسْماءِ لا يُغَيِّرُ الحقَائِقَ ولاَ يُبَدِّلُها ولاَ يُصَيرِّ الحلالَ حَرَاماً ولاَ الحَرَامَ حَلالاً؛ ولاَ الحقَّ بَاطِلاً ولاَ الباطِلَ حَقّاً, بَلِ الأَحْكَامُ مَنُوطَةٌ بِالحَقَائِقِ مُعَلَّقَةٌ بِها فَمَا سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى جِهَاداً وَقِتالاً للأَعْدَاءِ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ، وَالذَّبُ عَنِ الدِّينِ وَالعِرْضِ وَالحَرِيمِ؛ فَهُوَ الجِهَادُ, وَإِنْ سَمَّاهُ غَيرَ ذَلكَ مَنْ سَمَّاهُ.....وَباللهِ التَّوْفِيقُ.

وصلى الله على محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

كانَ **الله** له

أبُو الوَلِيدِ الغَزِّيُّ الأنْصارِيُّ